اسهام عبد القاهر الجرجانى فى النقد الأدبى العربى والبلاغة .
من خلال اسرار البلاغة

بحث جامعى

لنيل شهادة ما قبل الدكتوراة

الباحث

محمد عليم

تحت اشراف

البروفيسور فيضان الله الفاروقى

مركز الدراسات العربية والأفريقية

مدرسة دراسات اللغة والأدب والثقافة

جامعة جواهر لال نهرو . نيودلهى ١١٠٠٦٧

عام ٢٠٠٢م

مركز الدراسات العربية و الأفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi-110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067

CERTIFICATE

This is to certify that the Master of Philosophy dissertation entitled "CONTRIBUTION OF ABD-AL-QAHIR-AL-JORJANI IN ARABIC LITERARY CRITICISM AND RHETORIC WITH SPECIAL REFERENCE TO ASRAR-AL-BALAGHA", Submitted by me, is my original work. This work neither in part nor in full has ever been submitted to any University / Institution for the award of the same degree to the best of my knowledge.

Mohd.Aleem

PROF. F.U. FAROOQUI 22/7/02
Supervisor

PROF. M.A. ISLAHI
Chairperson

Gram : JAYENU Tel.: 6107676, 6167557 Ext. 2253, TELEX : 031-73167 JNU IN Fax : 91-011-6198234, 6165886

بسم الله الرحمان الرحيم

اهداء.....

الى أمي الحنون وأبى الكريم

رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا

المقدمة

البلاغة علم من علوم اللغة، برز وبالنقد يقاس الأدب. ويبين حسنه من رديئه، وجميله من قبيحه. أو كما قال الأستاذ أمين الخولي: البلاغة روح الأدب، والأدب مادتها تعلم صنعه، وتبصر بنقده. وأعتبر البلاغة من علوم اللغة العربية والإسلامية التي خدمت العربية خدمة عظيمة، وعملت على إبراز ما في القرآن الكريم من وجوه الجمال، وبيّنت سرّ الإعجاز، وذلك بالبحث في أسلوبه، وطريقة أدائه المعاني المختلفة، ومقارنته بأساليب العرب الشعرية والنثرية.

وليست البلاغة مقصورة على العرب، ولا على أمة دون أمة، وإنما هي في معظم اللغات التي نالت حظاً وافراً في التطور والإرتقاء.

وقد اهتمت الأمم بتدوين قواعد البلاغة، وأصولها، لتكون عوناً للدارسين والناقدين،

ولعل اليونانيين كانوا أول من قاموا بتدوين البلاغة، والبحث في مسائلها، وتناولوها كالنظرية الفلسفية في الشعر. فهذا أرسطو تناول كثيراً من الأبحاث البلاغية للتحليل والتجزية، كالمجاز، والإستعارة، والتشبيه، والخبر، والأمر، والدعاء وغيرها في كتابيه "الشعر" و "الخطابة".

فلم يكن العرب أقل من غيرهم منزلة ورفعة بعد ظهور الإسلام، فدوّنوا علومهم اللغوية، وتراثهم الأدبي. وكانت البلاغة من أوائل العلوم التي اهتم العرب

و المسلمون بها لحاجتهم إليها في معرفة روعة القرآن، وسحره، وتمييز الكلام الحسن من الرديء المبتذل. إلى جانب رغبة الأجانب في تعلم اللغة العربية، وتفهم أساليبها، وتذوقها، بعد أن أصبحت هي اللغة الرسمية للأقطار المفتوحة، يوم انتشر الإسلام، وساد معظم بقاع العالم المعمور. وقد أشار القدماء إلى أهمية البلاغة وما ترمي إليه. فهذا أبو هلال العسكري يوضح أهميتها وأهدافها بقوله - « إن أحق العلوم بالتعلم، وأولها بالتحفظ - بعد المعرفة بالله جل ثناؤه - علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى.

وهذا معلوم جيداً لدى الجميع أن من أشغل وأخل بمعرفة الفصاحة، لا يمكنه العلم بإعجاز القرآن مما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب.

فغاية ما ترمي البلاغة إليه عند معظم البلاغيين هي معرفة إعجاز القرآن الكريم، وبيان سر إعجازه. - وهذا غرض ديني بحت. الهدف منه خدمة القرآن المجيد، وتثبيت العقيدة الإسلامية في أذهان الناس. إلى جانب هدفين آخرين وهما: هدف أدبي وهو معرفة الكلام الجيد من الرديء؛ وغرض تعليمي، وهو الاستعانة بالبلاغة في إنشاء الأدب شعره ونثره. وهذه الغايات الثلاث لا تكاد تخلو مقدمة من مقدمات كتب البلاغة العربية عامة والكتب

التي تبحث في إعجاز القرآن خاصةً.

البلاغة مع النقد يكونان السبيل السوي إلى فهم الأساليب المختلفة، والإجادة في فني المنظوم، والمنثور. لأن البلاغة لا تختلف عن النقد إلا من حيث المعالجة، وطريقة العرض. أما موضوعهما فواحد، وهو الأدب، أو الكلام الأدبي.

وقد نشأت البلاغة والنقد عند العرب جنباً إلى جنب. وكانت نشأة البلاغة بسيطة ساذجة، وتتمثل بذور البحث النقدي في الأحكام التي كان الشعراء، وغيرهم يصدرونها. وليست قصة امرئ القيس وعلقمة الفحل، وقصة النابغة الذبياني الذي كانت تضرب له قبة في سوق عكاظ، وقصة الخنساء وحسان بن ثابت، وأسواق العرب التي كان الناس يجتمعون فيها. فيلقى الشعراء شعرهم، والخطباء خطبهم، وينقد بعضهم بعضاً. ليست هذا - إلا بداية حسنة للنقد والبلاغة، وبذوراً أثمرت أصولاً وقواعد لجد قرن أو قرنين.

وقد أثر القرآن الكريم تأثيراً عظيماً في تطور البلاغة، فكان محفزاً هاماً للإتجاه نحو تدوين أصولها، وقواعدها. ولكن هذا الأثر لم يكن كبيراً واضحاً في صدر الإسلام لإنشغال العرب في تثبيت دعائم ملكهم، ونشر الإسلام خارج جزيرة العرب. لذلك بقي النقد في العصر الإسلامي الأول ساذجاً معتمداً

على الذوق أكثر من اعتماده على التعليل - شأنه في ذلك شأن النقد في العصر الجاهلي. ولم تكن أحكامهم النقدية، ومقاييسهم البلاغية تخرج عن قولهم، أشعر الناس، إمرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، أو أشعر بيت في الغزل قول الشاعر -

إن العيون التي في طرفها حور = قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

ليصرعن ذا اللب حتى لا حراك به = وهن أضعف خلق الله إنسانا -

أو أهجى بيت قول الشاعر -

فغض الطرف إنك من نمير - فلا كعباً بلغت ولا كلابا -

وغير ذلك من الأحكام البسيطة الساذجة التي تعتمد على الذوق أكثر من اعتمادها على التعليل - ولم يكن هذا النقد الذوقي كافياً لتكوين قواعد، وأصول نقدية، تفيد ناقد الأدب ومنشئه، وذلك لعدم وجود منهج يسير عليه النقاد - واختفاء التعليل المنصل - ولكن البلاغة والنقد خطوا خطوات كبيرة في صدر الدولة العباسية - وكان هذا أمراً طبيعياً بعد أن استقر العرب في البلاد التي رفرف عليها لواء الإسلام، وبعد أن اتصلوا بغيرهم من الأقوام، وثقافاتهم، وترجمت العلوم المختلفة عن اليونانية، والسريانية، والفارسية، والهندية، وغيرها

وبقي النقد يسير مع البلاغة جنباً إلى جنب حتى القرن الرابع الهجري حينما وضع

أبو هلال العسكرى كتاب «الصناعتين»، فكان هذا الكتاب نقطة تحول النقد إلى البلاغة، أو نقطة البدء بتقرير قواعد البلاغة، وضبط مسائلها وأصولها، وإن كانت للبلاغة، وضبط مسائلها بدور منذ عهد مبكر - فقد ظهرت أوائل مسائلها فى كتب النحو والتفسير الأولى.

وتتابع التأليف فى البلاغة حتى وصلت قمتها على يدى عبد القاهر الجرجانى، مؤلف كتابى «أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز»، وقد استطاع أن يجمع فى هذين الكتابين معظم مباحث البلاغة، ولكنه لم يقسمها كما قسمها السكاكى (٦٢٦هـ) وإنما بحثها بطريقته الخاصة فكان التجنيس إلى جانب الاستعارة، والتشبيه، والفصل والوصل، إلى جانب المجاز والكناية فى أسلوب الكلام.

يرى الدكتور طه حسين بعد أن عرض للبيانين. البيان العربى، والبيان اليونانى، أن جهود ابن سينا فى تعريب كتاب الخطابة لأرسطو: أى فى عرضه فى قالب عربى، وجعله فى متناول الفكر العربى، قد هيأت أسباب التوفيق بين البيانين اللذين عاشا جنبا إلى جنب دون أن يستطيعا تلاقيا وتآلفا، وكان هذا التوفيق على يدى الجرجانى فى كتابيه «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز». أما فى أسرار البلاغة فيلمح الدكتور طه حسين الأثر اليونانى، حين يكاد يجزم بأن الجرجانى قرأ الفصل الذى عقده ابن سينا للعبارة وأنه فكر فيه كثيراً وحاول أن يدرسه دراسة نقد وتمحيص، ولكنه يلمحه أشد وضوحاً حين يرى أن الكتاب قائم على دراسة الحقيقة والمجاز. وأن ما يسميه عبد القاهر

مجازاً مرسلاً هو المجاز عند أرسطو، وما يسميه استعارة يسميه أرسطو صورة، وأنه لم يخرج بحال عن الحدود التي رسمها المعلم الأول. وأما في دلائل الإعجاز، فيرى الدكتور أن عبد القاهر "أنفق جهداً صادقاً خصباً في التأليف بين قواعد النحو العربي، وبين ما لأرسطو في الجملة والأسلوب والفصل من الآراء، وقد وفق بين ذلك توفيقاً يدعو إلى الإعجاب".

أما أنا فقد قمت في هذه الأطروحة بدراسة هذا العلم الفخم المملوق من خلال كتابه أسرار البلاغة، الذي كان لجهوده الموفقة أثر كبير في تطوير البلاغة والنهوض بها وكانت مساعيه البلاغية في النصوص الأدبية قامت بالإفصاح عن أسرار جمال الأدب. فقد يجد فيه القارئ البعد كل البعد عن الجفاف الذي منيت به دراسة البلاغة العربية في كتبها التي كانت تقرأ من قبل.

وحاول عبد القاهر سعياً مشكوراً في إبراز بعض الخفايا المكنونة لدى العرب كما لدى اليونان في نفس الوقت. وحقاً إنه أورد في مجال الاستعارة من صميم النكات التي لم تنكشف على النقاد والأدباء حتى أشار إليه الجرجاني، وقدر قيمتها، ومن هذا المنطلق إنه احتل مكانة ممتازة مختصة به في مجال الأدب والنقد لم يسبق إليها أحد لا من قبل ولا من بعد، ولم يقدر لأحد تلك المكانة المرموقة حتى أصبح محصول الأقران.

وأخيراً من الواجب أن أتقدم بالشكر والامتنان إلى أستاذي ومشرفي الكريمين الشفيقين البروفيسور فيضان الله الفاروقي أدام الله له الصحة والعافية.

الذى استرعى انتباهى إلى خطورة هذا الموضوع. وتكرمنى بتوجيهاته القيمة وإرشاداته السديدة فى إتمام هذه الأطروحة، ونفخ فى روح الدراسة والمطالعة. وأرشدنى إلى أماكن الحسن والسداد، وأنقذنى من مواطن الضعف والخطأ.

بعد ذلك أعرب عن عميق شكرى لصديقى وأخى الكبير نسيم أختر الذى قام بتقديم مساعدات غالية ومشورات مفيدة فى مسار البحث والتحقيق. ولجميع الأصدقاء والزملاء الذين ساعدونى بأى نوع من أنواع المساعدة خصوصاً من بينهم محمد ساجد ومحمد حفيظ فريدى اللذين قاما بتشجيعى كلما شعرت بكلال وتعب وتوان.

وأشكر جميع الأساتذة من أعماق قلبى وقرارات نفسى، الذين ساعدونى علمياً وخلقياً وتربوياً وأدعو الله لهم أن يمتعهم بدوام الصحة والعافية. ويتيح لنا - جميع الطلاب - فرصة للاستفادة من علمهم وفضلهم ونصحهم. إنه سميع مجيب الدعوات وهادٍ إلى الصراط المستقيم -

محمد عليم

مركز الدراسات العربية والأفريقية.

مدرسة الدراسات اللغوية، والأدبية والثقافية

الباب الأول

إزدهار البلاغة العربية

الفصل الأول

نشأة عبد القاهر الجرجاني وثقافته

الفصل الثاني

كلمة عن علم البلاغة وأصحابه.

الفصل الثالث

عبد القاهر، والبلاغة العربية وقواعدها

نشأة عبد القاهر الجرجاني و ثقافته:-

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمٰن بن محمد الجرجاني. ولد في مطلع القرن الخامس للهجرة في جرجان مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان. ذات خضرة وارفة وحسن طبيعي جم، وذلك أن بها الثلج والنخيل وبها فواكه الصرود والجروم، أهاليها يتزينون بالتأني والأخلاق اللينة. وقد ذكر أصحاب السير أن سويد بن مقرن كاتب ملك جرجان. وأرضاه على أداء الجزية بعد ما فرغ من فتح بسطام في سنة ١٨ للهجرة. (١)

ويقال إن أول من قام ببناء هذه المدينة. هو يزيد بن المهلب بن أبي صفرة. وكان الفضل بن سهل قد ولى مسلم بن الوليد الشاعر ضياعها. وضمنه إياها. وأقام بها حتى وافته الوفاة. فرأى نخلة في المرض الذي مات فيه لم يكن في جرجان غيرها فقال.

ألا يا نخلة بالسفح من أكناف جرجان

ألا إني وإياك بجرجان ... غريبان (٢)

وقعت جرجان في القرنين الرابع والخامس في حوزة الدولة الزيارية ثم الغزنوية ثم في أيدي السلاجقة سنة ٤٣٣ هـ. وكان أوسع وزراء هذه الدولة الأخيرة شهرة وصيتاً نظام الملك أبو علي الحسن علي الذي كان محباً للعلم. وهو الذي أخذ في بناء المدارس المعروفة بالنظامية. وقد أنجبت أرض جرجان كثيراً من العلماء والفقهاء والأدباء. وكانت في جرجان في القرنين الرابع والخامس دولة صولة للنشاط العلمي واسع المدى

وكفاها فخراً أنها أنجبت أديبين كبيرين هما:

١- القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني.

٢- الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي نحن بصدده في هذه المقالة. فلم يمكنني الحصول على وسيلة ما تؤدي إلى حالات أسرته سوى أنها أسرة فارسية، ويرى أنها كانت فاقدة المال فلم تستطع على الإنفاق على ابنها في سبيل تحصيل العلم كما كانت العادة في التنقل في البلاد لحصول العلم آنذاك. وبذلك يتضح أن أسرته لم تكن تحتل من الجاه مكاناً. فلم يعرف من أسرته إلا جده محمد. وأظن هو السبب الرئيسي الذي أدى إلى اختلاف تاريخ ولادته. فإن أسرته لم تعن بتسجيل اليوم الذي ولد فيه. ولكن البيئة التي نشأ فيها هذا العالم الفخم كانت زاخرة بالعلوم وأصحابها والمعارف والفضائل وذويها بينما كان الصراع السياسي قائماً في القرن الخامس. فنشأ محباً للعلم ولوعاً بالثقافة وخاصة كتب النحو والبلاغة.

أستطيع القول بأن هذه الميول قد نشأت فيه لأجل أستاذيه ١- أبو الحسين محمد بن حسن ابن عبد الوارث الفارسي النحوي نزيل جرجان. ٢- وأبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني. بيد أني غير متأكد من أن عبد القاهر الجرجاني قرأ على أبي الحسين محمد بن حسن بن عبد الوارث لأن القاضي توفي سنة ٣٩٢ للهجرة. فمتى يكون عبد القاهر قد تلمذ عليه، بينما عبد القاهر وافته الوفاة سنة ٤٧١ للهجرة. فإن نقتنع بقول قيل فيه أنه قرأ على أبي الحسين

يلزم أنه ولد قبل وفاته بنحو خمسة عشر عاماً على الأقل ليتحقق التلمذ. وذلك يعني أن عبد القاهر ولد حول سنة ٣٧٧ هـ. أي أن أبا الحسين تحمّر إلى تسعين على الأقل. لكن لم يقل أحد من المؤرخين بأنه بلغ من عمره إلى هذا الحد.

بذلك يثبت أن تلمذ عبد القاهر على القاضي كان تلمذاً من كتبه لا من شخصه.

غير أن نجد عبد القاهر ينقل عن القاضي الجرجاني في كتابيه «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» ويرجح آراءه، مع ذلك لم يستعمل لنفسه الجلوس إليه ليقرأ كتبه أو يتلقى العلم شفاهاً بلا واسطة.

وذكر الخوانساري أن عبد القاهر درس النحو على شيخين آخرين. فقال بعدما نقل عنه عن بغية الوعاة أنه أخذ عن ابن أخت الفارسي «وهو غريب لأن هذا الأحمق مع قلة بضاعته في هذه الصناعة قد اطلع على شيخين آخرين له في قراءة النحو وغيره -

أحدهما. ابن جني المشهور وثانيهما. الصاحب بن عباد الوزير»[1]

هذا غير صحيح لأن ابن جني توفي سنة ٣٩٣ هـ والصاحب بن عباد سنة ٣٨٥ هـ. فتلمذ عبد القاهر يكون على كتبهما لا على شخصهما. وعبد القاهر حينما يذكر السند يقول «قال شيخنا رحمه الله» أو «أنشدنا شيخنا رحمه الله» أو «حكى شيخنا رحمه الله» لذلك أغلب الظن أن شيخه هذا هو ابن أخت أبي علي الفارسي.

غير أن عبد القاهر لم يقف عند أخذه عن شيخه. إنما قرأ الكتب بفكر واعٍ. وظل متعلماً

١- دراسات بلاغية نقدية ص ٢٣١

أمام الكتب شأن الطالب الذى يعتمد على ذاته فى القراءة والتحصيل. فإنه ينقل عن سيبويه، والجاحظ وأبى على الفارسى، وابن قتيبة، وقدامة، والآمدى، والقاضى الجرجانى، وأبى هلال العسكرى، وأبى أحمد العسكرى، وقرأ كتاب الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن بن عيسى الهمدانى، ورجع إلى كتاب الشعر والشعراء للمرزبانى، ونقل عن الزجاج.

بالتالى حصل على الإطلاع الجم والثقافة الواسعة وتصدر بجرجان وذاع صيته وجاء الناس إليه من كل فجٍ وعميق طلباً للعلم لديه. ليقرأون عليه كتبه ويأخذون عنه ولزم بلدته ينفع الراحلين إليه والوافدين. وكان على بن زيد الفصيحى من تلاميذه المذكورين الواردين إلى العراق والمتصدرين ببغداد. وقد تخرج به طلاب كثيرون وأخذوا عنه ما أخذه هو من عبد القاهر كما كان من تلاميذه يحيى بن على الخطيب التبريزى. قال طاش كبرى زاده فى ترجمته «هاجر إلى أبى العلاء المعرى وأخذ عنه، وعن عبيد الله الرقى، والحسن بن رجاء الدهان، وابن برهان المفضل القصبانى وعبد القاهر»[1].

ومن تلاميذه أبو نصر أحمد بن إبراهيم بن محمد الشجرى، وقد ذكر القفطى «قال ابن عياض الشامى الكفرطابى النحوى ونقله بخطه فى تذكرته فى آخر نسخة المقتصد لعبد القاهر الجرجانى بالرى مكتوباً ما حكايته» قرأ على الأخ الفقيه أبى نصر أحمد بن إبراهيم بن محمد الشجرى - أيده الله - هذا الكتاب من أوله إلى آخره قراءة ضبط وتحصيل. وكتبه عبد القاهر ابن عبد الرحمان بخطه فى شهر رمضان المبارك من سنة ٤٥٤ هـ حامداً لربه ومصلياً على

محمد رسوله وآله صلعم»(١)

ومن تلاميذه أحمد بن عبد الله المهاباذي الضرير صاحب شرح كتاب اللمع لابن جني.

وإلى ذلك كان عبد القاهر ذا علم واسع واطلاع جم في مجالات متعددة

بيد أنه كان مقتراً عليه في الرزق. ولم يدر من مواد رزقه. وكان يبغض النفاق

والملق عند الملوك والرؤساء. ولذلك يسخط على العلماء الذين كانوا يباشرون

أعمال التملق والنفاق فيقول.

هذا زمان ليس فيه سوى النذالة والجهالة

لم يرق فيه صاعد إلا وسلمه النذالة

ولأنه ما كان يحب أن يغير من طبيعته أو يقوم بتقبيل أيدي أناس يراهم

حميراً حيناً وكلاباً حيناً آخر.

وقد قيل إن الذي سبب هذه النقمة والسخط هو أنه جرب الاتصال بمن كان

في أيديهم زمام الأمور. ولكنه لم يرض بالحط من كرامته وعزة نفسه. فلم تفد

التجربة كما يبدو من أشعاره حيث يقول:

لا يوحشنك أنهم ما ارتاحوا - مما أجلاه عليهم المداح

فهم كقوم علقت بإزائهم - بيض المرائي والوجوه قباح

وكن لم يعلم من هم الذين مدحهم سوى الوزير نظام الملك أبي علي الحسن بن علي

١- انباه الرواة ج٢- ص١٩٠

وزير السلاجقة. وكان قد اشتغل بالحديث والفقه. وكثيراً ما انفرد بإدارة الشؤون. ويذكر له أنه أول من أنشأ المدارس في البلاد وقد مدحه عبد القاهر بشعر منه.

لو جاود الغيث غدا - بالجود منه أجدرا

أو قيس عرف عرفه - بالمسك كان أعطرا

ذو شيم لو أنها - في الماء ما تغيرا

وهمة لو أنها - للنجم ما تعذرا

لو مس عوداً يابساً - أورق ثم أثمرا (١)

ولكن لم يعرف السبب الواقعي الذي ساده إلى قرض هذا المديح المسهل هو مطلق الإعجاب بنظام الملك. أو أن كانت لديه رغبة في أن يكون أحد أساتذه مدرسته النظامية. أو أنه كان يريد أن يأوي إلى كنف الوزير ويجد عنده الحياة السعيدة الرغيدة كما تمتع بها كثير من العلماء. ولم يروِ لنا المورخون نتيجة مدح عبد القاهر لنظام الملك. وكل ما نعرف عنه أن عبد القاهر ظل مقيماً بجرجان ولم يفارقها حتى انتقل إلى جوار ربه.

أما خصائل وسمات عبد القاهر التي ذكرها المؤرخون واحتفظ بها لنا أصحاب السير والتراجم: وهي أنه كان متديناً كبيراً وورعاً تقياً. وكان يتكلم الأشعرية. روى السلفي أن لصاً دخل عليه وهو في صلاته. فأخذ ما وجد وهو ينظر

---

١ عبد القاهر وجهوده البلاغية ص ١١

ولم يقطع صلاته»

كان يحب أولئك الذين يستطيعون التمييز بين الجميل والقبيح ويحترمون الصديق ويعرفون قدره. أما هؤلاء الذين لا يعرفون الفرق ولا يحترمون فلا خير فيهم يقول عبد القاهر.

وما لك مطمع في المرء إلا - إذا ما أنكر الأمر القبيحا
فأما هو يحصل بين قبح - وبين الحسن فرقاناً صحيحاً
فإنك في رجاء الخير منه - بأجواز الفلاة تكيل ريحاً (١)

وقد أعجب مورخوه بعلمه وخلقه ولم تحل المعاصرة بين صاحب دمية القصر وبين شديد الإعجاب بعبد القاهر معاصره. فيقول صاحب دمية القصر «اتفقت على إمامته الألسنة وتجملت بمكانه وزمانه الأمكنة والأزمنة. وأثنى عليه طيب العناصر وتثنيت به عقود الخناصر. فهو فرد في علمه الغزير. لا بل هو العلم الفرد في الأئمة المتشاهير. وقد أفادني الشيخ أبو عامر ما ألقاه بحر الفضل على لسانه مما نطق الدهر باستحسانه. ولست فيما آتي من كريم مشاهدته واستماع لذيذ التحمد من مذاكرته. أيام أسعدتني أيام منه بدنو الدار. ولف أطناب الخيمتين قرب الجوار. إلا كمن ودع الماء والخضرة وتدرع الشعثة والغبرة» (٢)

مع ذلك لم يذكر مورخوه شيئاً عن حياته الخاصة أكانت له صاحبة وكان له ولد

١- دمية القصر ص ١٥٨ ٢- المرجع السابق ص ١٥٩

أم أنه عاش للعلم . وأخلص نفسه للدرس والتحصيل والتعليم والإنتاج.

لقد كان العصر الذى عاش فيه عبد القاهر عصر حروب واشتباكات بين الملوك والسلاطين ، وتاريخ ذلك العصر متلطخ بالدماء. ولعل هذا هو السبب الذى أدى العلماء إلى أن يعيشوا فى ظلال العلم طلباً للراحة والهدوء ويعكفوا عليه.

فإن هذا القرن الخامس ورث جهود أربعة قرون بذلها العلماء فى الدرس والتحصيل والإنتاج. واختلفت ينابيع الثقافة بين ثقافة عربية خالصة. وثقافة أجنبية خالصة تتمثل فى الكتب التى ترجمت عن اليونانية والفارسية والهندية. وثقافة تجمع بينهما فى إنتاج هؤلاء الذين جمعوا بين الثقافتين. كما ورث المذاهب الدينية التى عرفت كمذهب الشافعى. ومذهب الحنابلة. ومذهب الحنفية. ومذهب المالكية والظاهرية. وورث كذلك المذاهب العقيدية من أهل سنة يجعلون القرآن والحديث إماماً لهم. ومعتزلة يحكمون العقل فى مسائل العقيدة وأشاعرة يحاولون أن يوفقوا بين السنة والعقل. وكثيراً ما كان يحتدم النزاع بين المعتنقين لهذه المذاهب.

وظل عبد القاهر مقيماً بجرجان حتى توفى سنة ٤٧١ هـ الموافق ١٠٧٨ م وقيل ٤٧٤ الموافق ١٠٨٢ للميلاد. ولعبد القاهر كتب كثيرة فى الدراسات القرآنية والنحوية والبلاغية وغيرها وهى:

١- كتاب شرح الفاتحة .

٢- درج الدرر في تفسير الآي والسور- أشار إليه صاحب هدية العارفين.

٣- المعتضد. الشرح الكبير لكتاب أبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي في إعجاز القرآن.

٤- الشرح الصغير . شرح مختصر لكتاب الواسطي

٥. الرسالة الشافية. وهي في إعجاز القرآن. وقد طبعت في كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٦- دلائل الإعجاز

٧- أسرار البلاغة

٨- المدخل في دلائل الإعجاز . وهو مقدمة كتاب دلائل الإعجاز. وقد أفردها المؤلف.

٩- آثار الجرجاني. منها نسخة كتبت سنة ٥٦٨ هـ نقلاً من نسخة بخط المؤلف.

١٠- الإيجاز- أعجب عبد القاهر بكتاب "الإيضاح" في النحو لأبي علي الفارسي فلخصه وشرحه. وكتاب الإيجاز مختصر للإيضاح.

١١- المغني . وهو شرح لكتاب الإيضاح المذكور أعلاه

١٢- المقتصد- وهو ملخص كتابه "المغني في شرح الإيضاح" في ثلاثة مجلدات

١٣- التكملة

١٤- العوامل المائة من كتب عبد القاهر المتداولة

١٥- الجمل . وهو شرح لكتابه العوامل

١٦- التلخيص . وهو شرح لكتاب الجمل

١٧- العمدة في التصريف .

١٨- كتاب في العروض . وهو قصيدة تتضمن قواعد الأوزان الشعرية .

١٩- المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام .

٢٠- مختار الإختيار في فوائد معيار النظار في المعاني والبديع والبيان والقوافي .

ذكره البغدادي في هدية العارفين .

٢١- التذكرة

٢٢- المفتاح (١)

١- دراسات بلاغية نقدية . ص ٢٦٣

كلمة موجزة عن البلاغة وأصحابها السابقين :-

كان العرب في الجاهلية يقرضون الأشعار ويفتخرون بها. وكان أبو أمامة زياد النابغة الذبياني حكمهم آنذاك. فكانوا يضربون له قبة في سوق عكاظ. فتأتيه الشعراء وتعرض عليه الأشعار. فيقول فيها كلمته. فتسير في الناس لا يستطيع أحد أن ينقضها.

وأورد هنا مثلة قضى فيها النابغة الذبياني (١) مرة جلس النابغة للفصل وتقاطر عليه الشعراء ينشدون بين يديه آخر ما أحدثوه من الشعر أو أجود ما أحدثوه. وكان فيمن أنشدوا أبو بصير ميمون أعشى بن قيس. فما إن سمع قصيدة حتى قضى له. ثم جاء من بعده كثير من الشعراء فيهم حسان بن ثابت الأنصاري فأنشده، وجاءت في أخريات القوم تماضر بنت عمرو بن الشريد الخنساء. فأنشدته رائيتها التي ترثي فيها أخاها صخر بن عمرو والتي تقول فيها.

وإن صخراً لمولانا وسيدنا - وإن صخراً إذا نشتو لنحار

وإن صخراً لتأتم الهداة به - كأنه علم في رأسه نار (١)

فتطيبه هذه الأشعار. وتأخذ بنفسه فقال للخنساء «لولا أني أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس»، وكان حسان بن ثابت سمع ذلك فذهبت به الحمية وأخذته الغيرة. فقال «أنا والله أشعر منها ومنك ومن أبيك»، عندئذٍ إتجه إليه النابغة الذبياني سائلاً «حيث تقول ماذا»، فرد حسان بن ثابت قائلاً.

١- مقدمة مختصر المعاني ص٦

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى - وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابن محرق - فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنا

فردّ النابغة إنك شاعر فقط لأنك قمت بتقليل جفناتك وأسيافك. قلت «يلمعن بالضحى» كان أبلغ في الفخر لأن قدوم الضيوف يتم في الليالي أكثر كثير. وكان من الأنسب أن قلت مكان «يقطرن من نجدة دماً» «يجرين دماً» لكثرة انصباب الدم.

٢- ذكروا. مرة قدم النابغة الذبياني المدينة. فدخل السوق فنزل عن راحلته ثم جثى على ركبتيه. ثم اعتمد على عصاه. وقال ألا رجل ينشد. فتقدم إليه قيس ابن الخطيم فجلس إليه وأنشده.

ألم تعرف رسماً كاطراد المذاهب.

فلم يزده على نصف بيت حتى قال له. أنت أشعر الناس يا ابن أخي.

هكذا روى الرواة والمؤرخون. وهذا لا يعني بأن نقوم بتصديق هذه الوقائع أو تكذيبها. لأنها على كل حال دالة بالوضوح على ما نقصد إثباته في هذا المكان. فهي تخبر على أقل تقدير- بأن هناك علماء كانوا في الصدر الأول الذين قاموا بتدوين أخبار العرب قبل الإسلام ورواية أشعارهم. وهل هذه الأمانة إلى الناس. وتدل هذه الرواية على أن هؤلاء العلماء كانوا يعرفون للعرب في الجاهلية بصراً بالنقد وعلماً بالبلاغة ومعرفة بما تقتضيه أحوال الكلام من القصد في القول أحياناً. والمبالغة فيه أحياناً.

وكان لهم مع ذلك خبرة باستخدام الكلمات والألفاظ في مواطنها كالمدح والرثاء والفخر والهجاء وإلا فما بال من لا يعلم ذلك ولا يقره لا يقول لمن يروى عنهم مثل هذه الرواية.

إنك وضاع مختلق. من الذى قال لك أن العرب كانوا ملمين بذلك. ومن الذى أخبرهم أن الأسياف والجفنات تدلان على أقل عدد. وإن معنى «يلمعن» دون معنى «يبرقن»، وإن مناسبة «الدجى» لكرم الضيفان أشد من مناسبة «الضحى»، ونحو ذلك

فنظراً إلى هذه الروايات والوقائع نسلم أن العرب كانوا في الجاهلية يتمتعون ببصر نافذ يدركون به ما ندعوه في مصطلحات علوم البلاغة بمقتضيات الأحوال. ويعرفون من خلال ذلك أن لكل كلمة مع أختها مقاماً. وأن الرثاء ومقامه مباين للهجاء ومقامه. ومقام الفخر غير مقام النسيب. ولا يمكنك من أن تجحد ذلك. لأن القرآن الكريم نزل عليهم في أعلى درجات البلاغة. وأعلن عن نفسه أنه في منزلة لا تدانيها منزلة. وأنه ليس بمقدور أحد أن يأتى بمثله ولا بعشر سور من مثل سوره. وهم فهموه وعرفوا له هذه المنزلة، فلو لم يكونوا ما نقول عنهم من العلم والبصيرة لكان القرآن قد نزل بغير لسانهم الذى يتعارفونه. ولكانوا أعلنوا عنه أنه لا يجرى على السنن التى يسلكونها في كلامهم. ولم يكن لتحدى القرآن إياهم فائدة ما. ولم يكونوا ليدركوا سمو منزلته. والقرآن المجيد يكفى دليلاً على أن للعرب حساً مرهفاً وإدراكاً نافذاً. فإنهم قاموا بتقدير القرآن وآمنوا بأنه لا سبيل إلى محاكاته. وبأنه لا يشبه سجع الكهان ولا خنق السحرة ولغتهم. ومازالت هذه القدرة البلاغية

والإدراك النقدي يجري في عروقهم مجرى الدم. ونحن نجد كثيراً من الأمثال التي توضح وتجلي وتخبر عن هذه القدرة الكلامية. والتي كانت سواسية بين الرجال والنساء.

قالوا. إجتمع في ضيافة سكينة بنت الحسين السبط بن علي بن أبي طالب. جرير والفرزدق. وكثير عزة وجميل بثينة ونصيب، فمكثوا أياماً ثم أذنت لهم فدخلوا فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم. وأخرجت إليهم جارية لها وضيئة قد روت الأشعار والأحاديث.

فقالت أيكم الفرزدق. فقال الفرزدق ها أنذا. قالت أنت القائل:

هما دلتاني من ثمانين قامة - كما انقض باز أقتم الريش كاسره

فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا - أحي يرجى أم قتيل نحاذره

فقلت: إرفعا الأسباب لا يشعروا بنا - ووليت في أعجاز ليل أبادره

أحاذر بوابين قد وكلا بنا - وأحمر من ساج تئط مسامره

فأصبحت في القوم القعود وأصبحت - مغلقة دوني عليها دساكره

يرى أنها أضحت حصانا وقد جرى - لنا برقاها ما الذي أنا شاكره

قال نعم أنا قلته. قالت ما دعاك إلى إفشاء سرك وسرها. أفلا سترت على نفسك وعليها. خذ هذا الألف الدرهم والصرف. فقال الفرزدق. بل تركها والحاق بأهلي أجمل. هكذا دعت كل واحد منهم ومثلت أشعارهم. ووضعت الأصبع على موضع الضعف والنقص الفني.

لما جاء الإسلام بتعاليمه ونهضته التي تسربت في نواحي حياة العرب.

فبعثهم من مرقدهم . وأيقظت ما اختفى فيهم من أسباب الحياة والتدافع في طلب الجاه من جميع وجوهه . فكان شغلهم الشاغل ذلك الحين . حتى إذا أتى دور البحث وطلب العلم كان القرآن وعلومه أول ما اتجهت أنظارهم إليه . وكان القول في بيان مزية القرآن على كل حال وبيان ما اختص به من وجوه الحسن والجودة . ثم بيان طريق إعجازه . واسترعى ذلك انتباههم إلى أساليب الكلام وألوان الإبانة عن الغرض . كما فعل في لفت أنظارهم إلى وجوه الحسن في الكلام وما يتميز به القول عن القول . فكان من مجموع ذلك كله «علم البلاغة»

في القرنين الثاني والثالث من الهجرة نرى ثلاثة رجال كان لهم الفضل الأكبر في بناء صرح البلاغة . أولهم أبو عبيدة معمر بن المثنى اللغوي البصري مولى بني تيم رهط أبي بكر الصديق وتلميذ يونس بن حبيب شيخ سيبويه إمام نحاة البصرة . وأستاذ أمير المؤمنين هارون الرشيد . ومربي العلماء الفحول أبو عبيد القاسم بن سلام و أبو حاتم والمازني المولود سنة ١١٣ هـ والمتوفى سنة ٢٠٩ هـ . وأبو عبيدة صنف كتاباً باسم « مجاز القرآن » وكان هو يريد بكلمة « مجاز » معناها اللغوي . فكأنه قصد إلى الطرق التي سلكها القرآن للتعبير عن المعاني . ولم يرد المعنى الذي يتعارفه علماء البيان اليوم . وحاول أبو عبيدة في هذا الكتاب جمع جميع أنواع أساليب القرآن في الدلالة على المعنى . ولم يزد على شرح لفظ القرآن بقدر ما احتمله حفظه .

ثانيهم - أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ . أحد شيوخ المعتزلة و أئمتهم .

وصاحب النظم الذى لا يهتدى إليه الملل سبيلاً. ولا تأخذه السآمة. المتوفى سنة ٢٥٥ﻫ إنه خص فى كتابه "البيان والتبيين" مباحثاً كثيرة فى بيان الفصاحة والبلاغة. وفضل حسن البيان مع بيان ما حسن من السجع. وخفت فيه المؤنة. وجانب طريق التكلف وبيان ما ينبغى أن يكون الخطيب متحلياً به من الأخلاق.

ثالثهم. أمير المؤمنين أبو العباس المرتضى بالله عبد الله بن المعتز بن المتوكل وهو شاعر مطبوع وأديب مقتدر. وقد قرأ عليه المبرد وثعلب. وله كتاب "البديع"

وظهر فى القرن الرابع الهجرى ثلاث شخصيات ذات أهمية كبيرة فى هذا المجال

الأول. أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة. صاحب كتاب "نقد النثر" وكتاب "نقد الشعر" وكتاب جواهر الألفاظ. المتوفى سنة ٣٣٧ﻫ وهو يبتدئ كتابه نقد النثر قائلاً.

"أما بعد فإنك ذكرت لى وقوفك على كتاب عمرو بن الجاحظ الذى سماه كتاب "البيان والتبيين" وأنك وجدته إنما ذكر فيه أخباراً وخطباً. ولم يأت فيه بوصف البيان - وسألتنى أن أذكر لك جملاً من أقسام البيان آتية على أكثر أصوله حتى يستطيع المبتدئ معرفة معانيه، ويستغنى بها عن النظر فيه. وأنا أختصر لك ذلك لئلا يطول له الكتاب(١)

ويبدأ الكتاب مع توزيع العقل بين موهوب ومكسوب. ويضع للبيان أربعة أقسام.

(١) الإعتبار (٢) الإعتقاد (٣) العبارة (٤) البيان بالكتابة. وبعد ذلك يأتى بالقياس

١- مقدمة مختصر المعانى ص١٦

والحد والوصف والاسم وأنواع البحث والسؤال. فإنه صنف كتابه مبوباً من خلال أبواب النثر وأنواعه. والاعتقاد وأنواعه. والعبارة وأنواعها. والاشتقاق. والتشبيه وأقسامه. ثم يعقد باباً للحن يتكلم فيه على التعريض ودواعيه. وباباً للرمز وأخو الوحي. وباباً للاستعارة والحاجة إليها. وباباً للأمثال وأخر للغز. وباباً للحذف ودواعيه. وباباً للمبالغة وأقسامها. وباباً يذكر فيه القطع والعطف. وباباً للتقديم والتأخير.

أما كتابه «نقد الشعر» فإنه بدأه بتوضيح حد الشعر وأسباب جودته وأحوالها وأجناسها. وقام بعقد فصل لبدء إنهاء القول في الشعر، فبحث فيه عن الصفات الحميدة للفظ والوزن والقافية. ويخلل في ذكر ذلك بالترصيع. وبكثرة التمثيل. وقد عقد فصلاً للمعاني التي يدل عليها الشعر. ويذكر بعض أنواع البديع ونعوت التشبيه وبعض أنواعه. وبعد ذلك يتكلم عن التقسيم. والمقابلة. والتفسير. والتتميم. والمبالغة. والتكافؤ. والالتفات. والمساواة. والإشارة. والكناية. والإرداف. والتمثيل.

أما كتابه «جواهر الألفاظ» فهو كتاب جامع بين ألفاظ وعبارات مترادفة مع تساوقها في الوزن والقافية. وصدر بمقدمة ذكر فيها الترصيع والسجع وائتلاف البناء. واعتدال الوزن. واشتقاق لفظ من لفظ «الجناس»، والعكس والاستعارة والتقسيم. والمقابلة. والمبالغة. وغير ذلك من الأنواع

الثاني. أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني. صاحب كتاب «الوساطة بين

المتنبي وخصومه»، وهو الشاعر المقتدر اللبق المتوفى سنة ٣٦٦ هـ. ويعد كتابه من أحسن كتب العربية في النقد وبيان أسباب التفاضل بين الكلام وما يشبهه في معناه. وقد أكثر فيه من تقديم الشواهد والدلائل. وكشف الغطاء فيه عن أخطاء شعراء الجاهلية. وقام بعرض نماذج رائعة من الشعر العذب. وعرض شواهد الاستعارة حسنها وقبيحها. وميز النوعين أتم تمييز. ثم أوضح أنواعاً من الجناس والتقسيم. وبرهن على كل واحد - ثم عاد إلى ذكر محاسن الشعر وعيوبه. وبعد أن ذكر التشبيه والسرقات الشعرية.

الثالث - أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري صاحب كتاب «الصناعتين» توفي سنة ٣٩٥ هـ. وقد جمع في كتابه بين بيان معنى البلاغة. واختلاف الناس في التعبير عنها. وأتى بأمثلة كثيرة، وعقد باباً لتمييز جيد الكلام من رديئه. ومحموده من مذمومه. وباباً لمعرفة صناعة الكلام. وباباً أبان فيه عن حسن السبك وجودة الرصف. وباباً بحث فيه الإطناب والإيجاز. وباباً ذكر فيه السرقات الشعرية. وما حسن منها وما غير ذلك. وباباً ذكر فيه التشبيه. وباباً ذكر فيه السجع والازدواج. وباباً ذكر فيه البديع. وعد من البديع الاستعارة والكناية والتعريض والتذييل والاعتراض.

ولما جاء القرن الخامس الهجري الذي نبغ في أواخر سابقه وأوائل هذا القرن أربعة رجال كان لهم الفضل الأكبر. وأعظم المنة في تشييد هذا العلم

وتدعيمه -

الأول :- شيخ أهل السنة القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني. صاحب كتاب «إعجاز القرآن»، المتوفى سنة ٤٠٣ هـ. وأبان في كتابه «إعجاز القرآن»، عن وجوه الإعجاز القرآني. ونقل فيه أقوال العلماء السابقين. وأخذ ما كان منها مستقيم الحجة. محكم الدلالة. ونقد فيه كثيراً من الشعر العربي. وتعرض للامية امرئ القيس فقام بشرحها. وبيان ما فيها من البديع والبلاغة. كما تعرض لقصيدة لامية البحتري. وقام بنقدها وبيان ما فيها من عيوب ومحاسن. بيد أنه ما زال موضحاً من خلال ذلك البديع. فيذكر تعريف البلاغة والإستعارة. وحسن التشبيه. والغلو. والمماثلة. والتجنيس. والمطابقة. والموازنة. والمساواة. والإشارة والإيغال. والتوشيح والتكافؤ والكناية - والتعريض والعكس. والتبديل. والإعتراض. والرجوع والتذييل. والإستطراد والتكرار وغير ذلك. وكلما ذكر نوعاً من هذه الأنواع جاء له بالأمثلة والشواهد. ثم بيّن ما ورد منها في القرآن الكريم -

الثاني :- الشاعر العظيم أبو الحسن محمد بن الطاهر الشريف الرضي الموسوي المولود في بغداد سنة ٣٥٩. وتوفي سنة ٤٠٦ من الهجرة. إنه صنف كتابين في هذا الموضوع الذي نحن بصدده. أحدهما كتاب «تلخيص البيان عن مجازات القرآن»، والثاني كتاب «المجازات النبوية»، الذي يجمع كثيراً من كلام النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم تلقى بعضه رواية. وحصل على بعضه إجازةً. وخرّج بعضه قراءة وتفحصاً. فإن هذا الكتاب

يحتوى على كثير من التطبيقات فى أسلوب قلما يتأتى لغير الشريف الرضى. وهو يطلق

المجاز فى هذا الكتاب على أوسع وأعظم ما تعرفه اللغة العربية لها تين الكلمتين من المعنى.

فالكناية. والتشبيه. والمجاز المرسل. والمجاز اللغوى. والإستعارة كل اولئك مجاز عنده.

وقد كان هذا معروفاً إلى هذا الوقت - ثم انه يبرهن على ذلك بقول النبى صلى الله عليه وسلم.

« ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام، الأنصار كرشى وعيبتى، وفى هذا القول مجازان.

أحدهما أن يكون رسول الله صلعم أراد أن الأنصار هم مادتى التى أقوى بها وأفزع إليها

كما تفزع ذوات الإجترار إلى أكراشها فى استمراء الجرة منها. والإعتماد عند فقد الوعى

عليها. ثم أراد أن الأنصار رحمة الله عليهم يمدونه بأنفسهم ويكونون حوله فى السراء

والضراء عليهم » بيد أن المتأخرين ليقول إن فى هذه العبارة تشبيهاً بليغاً.

ورسول الله صلعم شبه الأنصار بالكرش. والجامع بين طرفى التشبيه. أن كل واحد

منهما عليه معول المستند إليه والمتاده. وإليه فزعه عند الشدة.

الثالث - أبو على الحسن بن رشيق القيروانى الأزدى المولود سنة ٣٩٠ هج وتوفى ليلة

السبت غرة ذى القعدة سنة ٤٥٦ هج - وإنه قام بتصنيف كتاب « العمدة فى محاسن

الشعر وآدابه » وقد جمع فيه من أحسن آراء العلماء والأدباء للشعر ومحاسنه.

وآدابه - وعقد فيه فصلاً لبيان فضل الشعر والرد على من كرهه وذكر فيه شفاعات

الشعراء لقبائلهم. وتحريضهم. واحتماء القبائل بشعرائها وما أشبه ذلك مما يتصل بالشعر والشعراء. وعقد أبواباً متعددة. فعقد باباً للبلاغة. وبابا للإيجاز. وآخر للبيان. وباباً للنظم. وباباً للبديع وباباً للمجاز. وباباً للتمثيل. وباباً للتشبيه. وباباً للإشارة وأنواعها. والتعريض. والكناية. والرمز والمحاجاة وغيرها. وباباً للتتبيع. وباباً للتجنيس. وباباً للتصدير. وباباً للمطابقة. وباباً للمقابلة. وباباً للموازنة. وغير ذلك من أنواع البديع.

الرابع :- هو الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني النحوي المتوفى سنة ٤٧٤ للهجرة. إنه كتب كتابين عظيمين «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة» ولا أدري أنه أمكن لأحد أن يحمل لهذا العلم قدر ما حمل هو بفكره وقلمه. فإنه أول من فرّق بين أنواع المجاز. وجعل بعضه مرسلاً وبعضه استعارةً. وهو أول من أوضح الفروق بين الأنواع المتشابهة. وأقام للمسائل التي يلتبس بعضها ببعض حدوداً تفصل النوع من النوع. وتميز الصنف من الصنف. وإنه أول من كتب في الفن الذي اصطلح المتأخرون عليه فيما بعدُ بفن المعاني. وإنك لتعجب أشد العجب حين تقرأ كتب السابقين وكتبه. لتجد بوناً واضحاً وفرقاً شاسعاً. ولتتساءل كيف طفرت مباحث هذا العلم هذه الطفرة - وكيف استطاع أن يجمع ما تشذر وتفرق في كتب السابقين بأسلوب أخاذ وعبارة فتانة، وإنه ليعلمك البلاغة بأسلوبه بأكثر مما يعلمك إياها بقواعده. وسأبحث عن عبد القاهر جهوده البلاغية وأعماله البيانية.

عبد القاهر والبلاغة العربية وقواعدها.

قد اعتبر عبد القاهر إماماً من أئمة البلاغة العربية وقواعدها في القرن الخامس الهجري. ومن الممكن أن يعتبر هذا التوقيت الزمني الذي عبرت فيه البلاغة والنحو والقواعد العربية مرحلة هامة خطرة من مراحل نموها وتطورها بفضل هذا الرجل العبقري. وإذا كانت البلاغة العربية، والنقد البلاغي قد ارتقيا في حضن البحث في الإعجاز القرآني. فإن عبد القاهر بكتابيه «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» يحتل مكان ممثل هام في هذا المجال.

وهذا بعض أقوال مؤرخيه فيه.

يقول السيوطي عنه: الإمام المشهور أبو بكر. كان من كبار أئمة العربية والبيان. ويقول عنه الأنباري: كان من أكابر النحويين. ويقول عنه السبكي. صار الإمام المشهور المقصود من جميع الجهات مع الدين الحنيف والورع والسكون. وينقل عنه الداودي ذلك في كتابه «طبقات المفسرين»، ويقول ابن قاضي شهبة. إن له فضيلة تامة في النحو. ويقول عنه ابن شاكر الكتبي. كان من كبار أئمة العربية. ويدعوه محمد باقر الإمام المشهور. وينقل عن صاحب تلخيص الآثار أن عبد القاهر كان فاضلاً عارفاً بعلم البيان، له كتاب في تلخيص إعجاز القرآن في غاية الحسن والجودة. ويرى الباخرزي كما ذكرت من قبل. أن الألسنة قد اتفقت على إمامته

وعبد الله اليافعي يرى فيه الإمام النحوي العلامة صاحب التصانيف المفيدة، ويوسف

ابن تغرى بردى يقول عنه - عبد القاهر النحوى اللغوى، شيخ العربية فى زمانه. كان إماماً مفتناً. إنتهت إليه رياسة النحاة فى زمانه. كان عبد القاهر علماً من أعلام البلاغة العربية، والنقد الأدبى والبلاغى. وقد حققت جهوده توفيقاً كبيراً فى تطوير هذه العلوم وتنميتها. وكانت وقفاته عند النصوص الأدبية تظهر أسرار جمالها ويحللها.

وكان دوماً يسعى إلى أن يشمل القارئ فيما هو يكتب أو يبين وكان يقرب النصوص إلى الذوق المعاصر. لأجل ذلك وجد الزمان المعاصر فيه باحثاً بريئاً عن الجفاف الذى طالما أصاب أصحاب هذه الصناعة فى كتبهم.

هنا أذكر اقتباساً من كتاب عبد القاهر «دلائل الإعجاز» يبين فيه الوضع العلمى فى عصره. فيذكر تصور عصره لعلم البيان وإدراكه لقيمة النحو والشعر. ويريد عبد القاهر بالبيان بلاغة القول التى تجعل السامعين والقارئين متأثرين بما يقرأون أو يسمعون فيصف عبد القاهر معاناة البيان وما ينبغى به من اعتقاد باطل وتصور فاسد فى عصره يقول «إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً. وأبسق فرعاً. وأحلى جنىً وأعذب وِرداً. وأكرم نتاجاً. وأنور سراجاً من علم البيان الذى لولاه لم تر إنساناً يحول الوشى ويصوغ الحلى. ويلفظ الدر. وينفث السحر ويقرى الشهد. ويريك بدائع من الدهر. ويجنيك الحلو اليانع من الثمر... إلى فوائد لا يدركها الإحصاء. ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء، إلا أنك لن ترى على ذلك نوعاً من

العلم قد لقي من الضيم ما لقيه. ومني من الحيف بما مني به. ودخل على الناس من الغلط في معناه ما دخل عليهم فيه. فقد سبقت إلى نفوسهم اعتقادات فاسدة وظنون رديئة. وركبهم فيه جهل عظيم. وخطأ فاحش. ترى كثيراً منهم لا يرى له معنى أكثر مما يرى للإشارة بالرأس والعين. وما تجده للخط والعقد. يسمع الفصاحة والبلاغة. والبراعة فلا يعرف لها معنى سوى الإطناب في القول. وأن يكون المتكلم في ذلك جهير الصوت. جاري اللسان. لا تعترضه لكنة ولا تقف به حبسة. وأن يستعمل اللفظ الغريب. والكلمة الوحشية. فإن استظهر للأمر. وبالغ في النظر فأن لا يلحن. فيرفع في موضع النصب، أو يخطئ فيجيء باللفظة على غير ما هي عليه في الوضع اللغوي. وعلى خلاف ما ثبتت به الرواية عن العرب.

جملة الأمر! إنه لا يرى النقص يدخل على صاحبه في ذلك إلا من جهة نقصه في علم اللغة. لا يعلم أن ههنا دقائق وأسراراً طريق العلم بها الروية والفكر. ولطائف مستقاها العقل. وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا إليها. ودلوا عليها. وكشف لهم عنها. ورفعت الحجب بينهم وبينها، وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام، ووجب أن يفضل بعضه بعضاً. وأن يبعد الشأو في ذلك وتمتد الغاية، ويعلو المرتقى، ويعز المطلب. حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز وإلى أن يخرج من طوق البشر» (١)

---

(١) [illegible] ص ٤

أما البلاغة كما يراها عبد القاهر، فهي حسن دلالة الكلام على مدلوله في شكل رائع بديع من التعبير. ولابد لإختيار هذا الشكل والأسلوب من عبارة يمكنها من الكشف والإظهار بوجه بديع. ولذلك نصب عبد القاهر نفسه لهذه الفكرة. وأول ما أخذ من ذلك هو فكرة اللفظ المفرد. فنظر إلى الكلمة قبل دخولها في الجملة، هل هي تؤدي معناها أم لا، وهل تتصور بين اللفظتين تفاضل في الدلالة. أو يوجد بين إسمين موضوعين لشئ واحد. أن يكون هذا أحسن وذلك حسن. فرأى أن الألفاظ لا يوجد فيها تفاضل بإحداها على أخراها. ما دامت هي منفردة إلا الأمرين.

الأول. أن تكون لفظة مستعملة ومألوفة وأخرى وحشية غريبة. والثاني. أن تكون لفظة أخف على اللسان، وأسهل في النطق. وأخرى نابية وثقيلة. ونأخذ هنا على سبيل المثال آية القرآن الكريم التي ذكر الله فيها قصة نوح عليه السلام. والفيضانات التي اكتسحت قوم نوح. فلما قضي الأمر وتم العذاب. أتى أمر من الله. فقال الله تعالى ذلك في هذه الألفاظ «وقيل يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي، وقيل بعداً للقوم الظالمين» فإن ننظر لنجد أن هناك لا فضل بين قال وقيل. ولكن إن أتى «وقال» مكان «وقيل»، فلم تكن الآية في مكان البلاغة وجودة السبك التي احتلتها الآن. لأن معنى قيل هو الملائم والمناسب للمعنى الذي أراد الآية بيانه. لأن الفاعل لم يُر. فكان البناء للمجهول أولى وأحق.

نظراً إلى هذه الآية يقول عبد القاهر أن الفضل يعود إلى ارتباط الكلمات. وانسجام بعضها ببعض. وإلى ما بين معاني بعضها ببعض من اتصال وتلاؤم.

حين تقرأ هذه الآية تجد مزية ظاهرة وفضيلة قاهرة بسبب ارتباط الكلمات بحيث لاقت الأولى بالثانية والثانية بالثالثة «فإن شككت فتأمل، هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت واحدة من بين أخواتها. وأفردتها لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية. فإن تقول «ابلعي» واعتبرها وحدها من غير نظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها. وكذلك فاعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك في ذلك. لأن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم أن النداء كان بياء. دون أي: يا أيتها الأرض. ثم أضيف الماء إلى الكاف. دون أن يقول، ابلعي الماء. ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنه. ونداء السماء وأمرها بما يخصها. ثم أن قيل «غيض الماء» فجاء الفعل على صيغة «فُعِل»، الدالة على أنه لم يغض الماء إلا بأمر آمر. وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى «قضى الأمر» ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو «واستوت على الجودي» ثم إضمار السفينة قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة، والدلالة على عظم الشأن. ثم مقابلة «قيل»، في الخاتمة «بقيل» في الفاتحة

يبرهن عبد القاهر بدليل آخر على أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مفردة وكلمات مجردة. وذلك أنك ترى كلمة تروقك في موضع. ثم تراها بعينها في موضع آخر

وتوحشك. فعلى سبيل المثال نأخذ كلمة "الأخدع" كما قال صمة بن عبد الله.

تلفت نحو الحي حتى وجدتني = وجعت من الإصغاء ليتاً وأخدعا

وفي بيت أبي تمام.

يا دهر، قوّم من أخدعيك فقد = أضججت هذا الأنام من خرقك.

فنجد أن كلمة "أخدع" في كلام صمة بن عبد الله ترقق النفس وتؤنسها بيد أنها في كلام أبي تمام تكدر الإحساس، وتثقل على النفس. هذان دليلان على ما قصد إليه عبد القاهر إثباته من أن الكلمات المفردة لا يوجد فيها تفاضل وتحاسن إلا بالخفة والإيناس، لأن الكلمة المستكرهة كريهة في كل موضع. وكذلك الوحشية الغريبة.

بالتالي ليست البلاغة إذا بعائدة إلى الألفاظ المفردة، لأنها ليست مما يحدث فيه التفاضل. وإنما يقع التفاضل إذا تم الإنتظام لهذه الكلمات في سلكٍ. وانضم بعضها إلى بعض لأداء معنى يريده الأديب أو الشاعر. هنا يبقى سؤال بأنه كيف يأتي هذا التأليف والنظم؟ فيرى عبد القاهر أن منظم الكلام ومؤلفه يقوم بتفكير عميق في المعنى الذي أراده أن يحقق تصويره. فيرتب هذا المعنى في نفسه أولاً. ويأخذ النظم الملائم لتأديته. فيقدم ما تقدم في نفسه، ويؤخر ما تأخر في نفسه. حتى يتفق مع المعنى الذي يريد. ويقوم بالموازنة بين الألفاظ ليختار أخصها بالمعنى. لأنه لا فضل للعلم بمعاني الكلم. وإنما الفضل لحسن التخير، ومعرفة الموضع

بناءً على ذلك يقول عبد القاهر في كتابه «دلائل الإعجاز» «النظم ليس شيئاً غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم، وأنك ترتب المعاني أولاً في نفسك، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك. ولا جهة لاستعمال هذه الخصال وهي حسن الدلالة وتمامها ثم تبرجها في صورة تستولي على النفس غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته. ويختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه. وأتم له وأحرى أن يكسبه نبلاً ويظهر فيه مزية.

أما صناع الكلام فهم يختلفون في إنتاجهم. لأن المعاني كالحلي كالخاتم والشنف والسوار. وهذه قد يكون واحد منها غفلاً لم يتقنها صانعه إلا أن أتى بما يقع عليه إسم الخاتم وما إلى ذلك. وقد يكون الصانع قد أبدع فيه وأغرب. هكذا الكلام بين مبدعه ومن لا يبدعه.

يختلف نظم الكلام ويتفاوت بتفاوت قدرة صانعي الكلام حتى بلغوا إلى الطراز العالي من الكلام. والطراز العالي والنمط الفائق من الكلام عند عبد القاهر. هو أن تتحد أجزاء الكلام. ويدخل بعضها في بعض. ويرتبط أولها بآخرها(١) ونرى مثالاً رائعاً للنظم في شعر البحتري إذ يقول.

إذا ما نهى الناهي فلج بي الهوى - أصاخت إلى الواشي فلج بها الهجر.

ومنه نوع آخر.

فبينا المرء في علياء أهوى - ومنحط أتيح له اعتلاء

١- عبد القاهر وجهوده البلاغية ص١٢٣

ولنوع ثالث كقول كثير.

وإني وتهيامي بعزة بعدما ـ تخليت مما بيننا وتخلت

لكالمرتجي ظل الغمامة ... كلما ـ تبوأ منها للمقيل اضمحلت (١)

يمضي عبد القاهر في ضرب الأمثلة لهذا النمط العالي من الكلام. وكان من الخير أن يأتي ببعض النماذج القرآنية هنا لتبيين الفرق بين الإعجاز القرآني والشعر العربي. وبالرغم من ذلك قد أشار عبد القاهر إلى أن صاحب اليد الطولى قد يأخذ المعنى الساذج. ثم يحوله إلى صورة فنية بديعة نادرة. والواقع أن هذا الخلاف في التعبير يعود إلى أن كل إنسان يختلف عن غيره في الشعور والتفكير. ويجئ كلامه معبراً عن رأيه وشعوره. ولذلك كان شعور الإنسان العادي شعوراً عادياً. وكذلك يكون تعبيره عادياً. أما الشاعر فإنه يشعر بما لا يشعر سواه. ومن ثم يتضح أن العبارة والتأليف يختلفان باختلاف شعورهما مثله.

بذلك أراد عبد القاهر الإيضاح أن البلاغة تكمن في تآخي الكلمات وانسجام المعاني وتناسقها. فإن البلاغة لا يمكن وجودها مع عدم التآخي والتناسق للكلمات. ولذلك يتكلم عبد القاهر عن المعنى، وأيا كان هذا المعنى؟ وكيف تأتى له البلاغة؟ وكيف يوصف بها؟ فيرد عبد القاهر في صراحة كاملة «واعلم أن الداء الدوى والذي أعيا أمره في هذا الباب. وغلط من قدم الشعر بمعناه. وأقل الاحتفال باللفظ. وجعل لا يعطيه من المزية. إن هو أعطى إلا ما فضل عن المعنى. يقول!

١- عبد القاهر وجهوده البلاغية ص ١٣٤

ما في اللفظ لولا المعنى. وصل الكلام إلا بمعناه؟ فأنت ترى أحداً لا يقدم شعراً حتى يكون قد أودع حكمة وأدباً. واشتمل على تشبيه غريب. ومعنى نادر. فإن مال إلى اللفظ شيئاً لم يعرف غير الاستعارة. وإن الأمر بالضد - فإذا جئنا إلى الحقائق لا نرى أحداً يلم بعلم البلاغة إلا وهو ينكر هذا الرأي ويعيبه ويزري على القائل به»[1]

لأجل ذلك ضرب عبد القاهر مثلاً أن الصائغ للكلام والصائغ للكلام سويان. لأن المعنى الذي يعبر المتكلم عنه كالشيء الذي ترتسم عليه التصوير أو النقش، فالذي يريد أن ينظر جودة الخاتم فلا يمكنه أن ينظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة ويقضي لها أو عليها. كذلك لا يمكن أن تعرف مكان الفضل في الكلام من غير نظر إلى الصياغة اللفظية وجودة السبك. وبذلك يتبين مذهب عبد القاهر بوضوح. إن الصياغة هي التي يتفاضل بها الكلام. لأن هذه الصياغة صورة للمعنى واختلافها يدل على اختلاف المعنى. وهنا يلتقي عبد القاهر بالجاحظ في أن أساس التفاضل بين صناع الكلام حيث يقول الجاحظ «المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي. والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن. وتخيير اللفظ وسهولة المخارج وفي صحة الطبع. وجودة السبك. فإنما الشعر صناعة وضرب من الصبغ. وجنس من التصوير»[2].

وبعد هذه المناسبة أورد عبد القاهر بيتين في معنى واحد على سبيل التمثيل فيقول النابغة الذبياني -

---

١- الدلائل ص ١٩٤ و ص ١٩٥ (٢) الدلائل ص ١٩٨

إذا ما غدا بالجيش حلق فوقه - إذا ما التقى الصفان أول غالب

وبيتاً آخر قول أبي نواس :

يتأيى الطير غدوته - ثقة بالشبع من جزره (١)

فالشاعران هنا قد حققا أستاذية ممتازة وصنعة نادرة. بينما نقل أبو نواس المعنى من صورة إلى صورة. وذلك أن هنا معنيين. أحدهما أصل وهو أن الطير يرى أن صاحبه هو الغالب. والثاني فرع وهو طمع الطير في وسعة المطعم من لحوم القتلى. بيد أن النابغة قصد إلى الأصل الذى هو علم الطير بأن ممدوحه هو الغالب فذكره صريحاً. واعتمد في الفرع الذى هو طمعها في لحوم القتلى. وهو «حلق فوقه» على دلالة فحوى الكلام. وأبو نواس ذكر الفرع والمعتمد في الأصل على فحوى الكلام. ففى الكلام. الفرع «ثقة بالشبع من جزره» والأصل علم الطير بأن الظفر يكون للممدوح،

فجعل عبد القاهر مناط البلاغة الصياغة اللفظية. بيد أنه يقول إنه لا يعنى ذلك «أن تعمد إلى إسم، فتجعله فاعلاً لفعل. أو مفعولاً. أو تعمد إلى إسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر. أو تتبع الإسم إسماً على أن يكون الثاني صفة أو حالاً أو تمييزاً أو ثمنياً. فتدخل عليه الحروف الموضوعة. أو تأخذ فعلين وتجعل أحدهما شرطاً للآخر. فتجئ بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى أو بعد إسم من الأسماء التى ضمنت معنى ذلك الحرف» (٢)

وبعد ذلك يقول «فليس النظم إذاً إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو.

١- عبد القاهر جمهوده البلاغية ص١٣٣ ٢- الدلائل ص٤٤

وتعمل على قوانينه وأصوله . وتعرف مناهجه التي نهجت . فلا تزيغ عنها . وتحفظ الرسوم التي

رسمت لك . فلا تخل بشيء منها لأنه ليس هنا سلك للكلم المفردة ينظمها . ولا جامع يجمع شملها

إلا توخي معاني النحو وأحكامه فيها »(١)

عقد عبد القاهر لتحقيق هذا الارتباط اللفظي والصياغة الكلامية أبواباً يستطيع الأديب

بها أن يكون الجملة على النسق الذي يصل به إلى هدفه من البلاغة ومنها -

التقديم والتأخير :-

يعتبر عبد القاهر أن التقديم والتأخير كثير الفوائد . ولذلك يعيب على

من استهانوا بأمر التقديم والتأخير . فاستقدمهم عبد القاهر قائلاً في دلائل الإعجاز « وقد صغر

أمر التقديم والتأخير في نفوسهم . وهونوا الخطب فيه . حتى إنك لترى أكثرهم يرون

التتبع والنظر فيه ضرباً من التكلف . ويمضي قائلاً « أنهم ما استهانوا بأمر التقديم والتأخير .

بل كذلك فعلوا في جميع الأبواب . فأخذوا لا يرون في الحذف والتكرار والإظهار والإضمار

والفصل والوصل ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه إلا نظرك فيما غيره أهم لك .

بل فيما إن لم تعلمه لم يضرك . لاجرم أن ذلك قد ذهب بهم عن معرفة البلاغة فإن

مزية الكلام تظهر بباب التقديم والتأخير . وأسلوب يعلو بهم على أسلوب وبه ظهر

إعجاز القرآن »(٢)

لذلك ارتكز عبد القاهر أولاً على هذه المسائل . وهنا نأخذ قبل كل ذلك الاستفهام

١- الدلائل ص ٦٤ ٢- الدلائل ص ٨٥ ، ٨٦

بالهمزة ، ذلك إذا بدأت بالفعل فقلت - أكتبت - فكأنك تشك في الفعل بعينه - أي أنت تريد أن تعلم أحدث الفعل أم لا . فإذا بدأت بالاسم . فقلت أأنت كتبت . فكأن تريد أن تدري من هو الفاعل - وكان التردد في الفاعل . وهكذا إذا كانت الهمزة للتقرير كما قال الله سبحانه " أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم " فإنهم يريدون أن يعلموا من هو الكسر بيد أنهم كانوا مسلمين بأن تكسير الأصنام قد حدث . ولذا كان الجواب بقوله " بل فعله كبيرهم هذا " فالهمزة تثبت في الآية أن الفعل قد وقع .

تأتي الهمزة لمعنى آخر هو إنكار أن يكون الفعل قد كان من أصله - كما قال الله تعالى " أفأصفاكم ربكم بالبنين ، واتخذ من الملائكة إناثاً وإنكم لتقولون قولاً عظيماً " فإن تقدمت الهمزة الفعل صار الإنكار في الفاعل . فالآية تنكر أنه سبحانه تعالى لم يخصهم بالبنين . وإن كان الاسم مقدماً كذلك كان الإنكار في الفاعل كما تقول " أأنت قرضت هذا الشعر " أي إنك تريد أن تقول إنك لست ممن يحسنون قرض الأشعار . أي أنت بهذا التعبير تنكر أن يكون هو القائل . ولكنك لا تنكر الشعر وجودته .

أما إذا كان الفعل مضارعاً . وقصدت به الحال كان المعنى مشابهاً بالفعل الماضي . فإذا قلت أتأكل . كان المعنى أنك لا تعلم حقاً أنه يأكل . ويكون المعنى مشابهاً بالماضي وإذا قلت أأنت تأكل كان المعنى أنك تريد التثبت في الفاعل - ومن تقديم الاسم قوله سبحانه " أأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " فالمراد هنا الإقرار بأنك

لاتستطيع أن تكره الناس على قبول الدين الحنيف. لأن الفاعل المطلق هو الله فقط.
أى لا تتعب نفسك فى إقناع الناس بالدين فإنه يكون ما شاء الله.

وإذا دخلت الهمزة الإستفهامية على المضارع. وتريد الإستقبال فكان المعنى أنك
لا تتأكد بأن الفعل نفسه يحدث. بل تزعم أن الفعل لا يكون ولا ينبغى أن يكون.
كما قال الشاعر.

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ـ ومسنونة زرق كأنياب أغوال (١)

فهنا ينكر الشاعر إنساناً قام بتهديده بالقتل. ولا يعتبره قادراً على فعل هذا. وعليه
قوله سبحانه «أنلزمكموها، وأنتم لها كارهون» أى نحن لا نلقى هذا الدين على أعناقكم
جبراً. وهكذا قال شاعر آخر.

أأترك أن قلت دراهم خالد ـ زيارته أنى إذا للئيم.

فهنا أنكر الفعل نفسه. وهو «أترك» هذا ما ليس من المحتمل أن أترك زيارة خالد
بسبب قلة دراهمه. وعدم ماله. ويبين عبد القاهر السر فى مجئ الإستفهام للإنكار
عندما يتقدم الإسم. وأنه لكى يتنبه السامع. ويرجع إلى نفسه. ومن هذا القسم قوله سبحانه
«أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى» فإن رسول الله صلعم لم يزعم إسماع الصم وهداية
العمى ـ إنما المعنى على التمثيل والتشبيه. وإذا تقدم المفعول كان الإنكار لأن يوقع به
مثل ذلك الفعل كقوله سبحانه «قل أغير الله أتخذ ولياً». فالحسن والمزية والفخامة البيانية

١ـ عبد القاهر دلائل البلاغة ص ١٤٣

التي توجد لم تكن لو أخرت كلمة «غير». وذلك حصل بالتقديم. فمعنى قولك: أيكون غير الله بغاية أن يتخذ ولياً. والحاصل منه أنه إذا تقدم الفعل كان الإنكار له. وأما غير الله فسكوت عن استحقاقه للعبادة أو عدم استحقاقه لها. وهكذا النفي إذا قدمته على الفعل. فقلت «ما فعلت» كان النفي للفعل. أي أن الفعل لم يثبت. وإن قلت «ما أنا قلت» كان النفي للفاعل أي أن الفعل موجود وثابت غير أن الفاعل مجهول. فاتضح أن هناك فرقاً بين تقديم الفعل وتقديم الاسم. بيد أنه هناك أمران. الأول: صحيح أن تقول «ما قلت هذا ولا قاله أحدٌ من الناس»، لأنك نفيت الفعل عن نفسك. ثم أنكرت عن سائر الناس. ولكن لا يصح أن تقول «ما أنا فعلت ولا أحد من الناس»، فإن تقدم الاسم يدل على أن الفعل وقع وثبت ولو من غيرك. فإذا نفيته بعد ذلك كان في ذلك تناقض. وكذلك يوجد الفرق في تقديم المفعول وتأخيره. فصحيح أن يقال «ما ضربت زيداً ولا أحداً من الناس»، ولا يصح أن يقال «ما زيداً ضربت ولا أحداً من الناس»، لأن تقديم المفعول يدل على أنك قمت بفعل الضرب ولو مع غير زيد. وحكم الجار والمجرور في حكم المفعول به في تقديمه وتأخيره. فإذا قلت ما أمرتك بهذا أي كان أمرك بذاك. ولكن إذا قلت «ما بهذا أمرتك»، أي كنت أمرته بشيء غيره.

هكذا الأمر في تقديم الخبر وتأخيره. فإذا قصدت شخصاً أن تخبر عنه بالفعل فقدمت ذكره كما في «زيد قد فعل»، فمعنى ذلك أن زيداً هو الفاعل لذلك الفعل بيد أن المعنى ينقسم قسمين.

١- تريد أن تخبر عن أن الفعل واحد دون واحد كما زيد قد فعل (٢) تريد أن تثبت للسامع أنه نفسه قد فعل. ويراد منعه من الشك. كما قال الله سبحانه "واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون" فليس معنى ذلك أنهم وحدهم هم الذين يخلقون كما في المعنى الأول "زيد قد فعل"، بيد أن التأكيد على أن الفعل نفسه تثبت لهم أيضاً. وقام عبد القاهر بالتعليل على أن تقديم الاسم على الفعل مؤكد لإثبات ذلك الفعل نفسه له، فيقول "بأن ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم مجرداً من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه فإذا قلت "عبد الله"، فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه. فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً "قام"، فقد علم السامع ما جئت به. وقد وطأت له وقدمت الإعلام به. فدخل على قلب السامع دخول المأنوس به. وقبله قبول المتهيئ له والمطمئن إليه. وذلك لا محالة أشد لثبوته وأنفى لشبهته. وليس إعلامك الشيء بغتة مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه. والتقدمة له. لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام". إن تقديم الاسم على الفعل يطالب تأكيد الخبر. وإذا تفكرنا نرى هذا القسم من الكلام يجيء فيما كان فيه من قبل إنكار منكر أو اعتراض أو تكذيب مدع. لذلك نرى أن هذا التعبير يكثر استخدامه في الوعد والضمان والمدح. فإذا كان الفعل مما لا شك فيه ولا يمكن إنكاره لم يكد يجيء على هذا الوجه

هكذا تقديم "مثل" و"غير"، يعتبر كاللازم كما في مثال "مثل"، قال الشاعر.

مثلك يثني المزن عن صوبه ... ويسترد الدمع عن غربه

وصار ليس مقصوداً إلا إنسان أضيف إليه مثل، بيد أن الناس يعنون أن كل من كان مثله في الحال والصفة. يقتضي القياس وموجب العادة أن يفعل ما ذكر من قبل.

ومثال «غير» قول أبي تمام

وغيري يأكل المعروف سحتاً. وتشحب عنده بيض الأيادي

ليس المراد بـ «غير» أن يومئ إلى إنسان فيخبر عنه بأنه يفعل كذا. وبذلك بين عبد القاهر الفرق بين تعبير وتعبير ليكون ذلك مرشداً لصناع الكلام وناقديه حتى يهدهم لا إلى التعبير الصالح. وكذلك يرى عبد القاهر مكاناً هاماً للحذف في البلاغة. بأنه يعتبر باب الحذف الذي ربما يجعل الكلام سحراً ويملؤه لطافة وإعجاباً. فإنه يقول في صدده. «فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة. وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق. وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن»

فقد يعرض شعراً حذف فيه المبتدأ ويدعو القارئ إلى أن يستقرى كل شعر على حدة. وأن ينظر فيه الإعجاب بالنفس. وأن يلمس بشعوره الإحساس السار المفرح كقول الشاعر

سأشكر عمراً أن تراخت منيتي ـ أيادي لم تمنن وإن هي جلت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ـ ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت.

فإذا نظرت مكان الحذف في الشعر. ثم تريد أن تأتي بما حذفه الشاعر لتجد الفرق الواضح بين العبارتين. ولتجد الحذف أحسن وأبين وآنس وأوقع في النفس من النطق به.

هكذا يكون للفعل مفعول خاص بيد أنه يحذف من اللفظ لدليل عليه كقول العرب «أصغيت إليه» أى بأذنى، وربما تذكر الفعل وفى نفسك له مفعول معلوم إلا أنك تذكر الفعل لإثبات نفس المعنى من غير ذكر المفعول كما قال البحترى يمدح المعتز بالله.

شجو حساده وغيظ عداه - أن يرى مبصر ويسمع واعى (١)

والمعنى أن يرى مبصر محاسنه ويسمع واع أخباره ومآثره. وهكذا إذا حذفت المفعول المعلوم المقصود بدليل الحال. أو بسياق الكلام كما ضرب عبد القاهر مثلاً لذلك.

كما قال طفيل الغنوى فى بنى جعفر بن كلاب.

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت - بنا نعلنا فى الواطئين فزلت

أبوا أن يملونا. ولو أن أمنا - تلاقى الذى يلقون منا لملت

هم خلطونا بالنفوس وألجئوا - إلى حجرات أدفأت وأظلت (٢)

فى هذه الأشعار حذف المفعول فى أربعة مواضع وهى ملت. وألجئوا. وأدفأت. وأظلت. وفى الأصل لملتنا، وألجئونا إلى حجرات أدفأتنا. وأظلتنا. وهكذا قول الشاعر «ولو أن أمنا تلاقى الذى لاقوه منا لملت» يتضمن أن ما لاقوه من المصيبة منا قد بلغ من الشدة إلى ما يجعل الأمهات يمللن مع ما فى طباع الأمهات من الصبر على المكاره فى مصالح الأولاد. وهكذا حذف المفعول بعد فعل «شاء» كقول الشاعر.

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم - كرماً ولم تهدم مآثر خالد.

١- عبد القاهر وجهوده البلاغية ص١٥٣ ٢- الدلائل ص١٢٣

والأصل «ولو شئت لهدم فساد سماحة حاتم لم تفسده»، ثم حذف ذلك لوجود الدليل عليه في البيت الثاني - وهكذا أصبح الكلام كما تراه في الحسن والمزية؛ لأن الواجب في حكم البلاغة ألا يتحقق النطق بالمحذوف - فإن رجعت إلى الأصل صيرت الكلام إلى كلام غثي. وربما يكون إظهار المفعول لفعل «شاء» هو الأحسن والأنسب كما قال الشاعر.

ولو شئت أن أبكي دماً لبكيته = عليه ولكن ساحة الصبر أوسع.

وههنا كان إظهار المفعول سبب الجمال والرونق لأنه كان بدعاً عجيباً أن يشاء الإنسان أن يبكي دماً. ولذلك كان التصريح به أولى. وكان السبب الذي أدى عبد القاهر إلى القيام بموازنة دقيقة في بيت البحتري إذ يقول.

قد طلبنا - فلم نجد لك في السؤدد - والمجد والمكارم مثلاً

فقد حذف البحتري المفعول به للفعل الأول. هو «قد طلبنا»، ولو أن البحتري قال «قد طلبنا لك مثلاً في السؤدد فلم نجده»، لذهب الرونق الذي تراه في البيت.

هذه هي المسائل التي تقدم لها عبد القاهر في باب الحذف.

وبعد إنهاء الكلام في باب الحذف. أتى عبد القاهر إلى مسائل خبر، فإنه لم يسلك مسلك النحاة المتقدمين فقط. بل هو بنفسه أمعن النظر في معنى الجملة. وبالتالي قسم الخبر بين قسمين. (١) الخبر الإسمي (٢) الخبر الفعلي، الخبر الإسمي: ما يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء.

الخبر الفعلي : هو يقتضي تجدد المعنى . فالإسم كقوله تعالى "وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد"

فلا يصح أن يقول " وكلبهم يبسط ذراعيه لأنه لا يتم الغرض . فالغرض هو أداء صيغة الكلب

وهكذا " هل من خالق غير الله يرزقكم " فهنا يجب أن يكون الخبر فعلاً فإن الرزق من

طبيعته التجدد والحدوث ساعة بعد ساعة .

فلو قيل " هل من خالق غير الله رازق لكم " لكان المعنى خلاف ما قصد إليه . وعلق

عبد القاهر على الفرق بين الخبر الإسمي والخبر الفعلي فيقول " ولا ينبغي أن يغرك إذا

تكلمنا في مسائل المبتدأ والخبر وقدرنا الفعل في هذا النحو تقدير الإسم ، كما نقول في

"زيد يقوم" إنه في موضع "زيد قائم" فإن ذلك لا يقتضي أن يستوي المعنى فيهما استواءً

لا يكون من بعده افتراق . فإنهما لو استويا هذا الإستواء لم يكن أحدهما فعلاً والآخر إسماً .

بل كان ينبغي أن يكونا جميعاً فعليين أو يكونا إسميين "[1]

يفرق عبد القاهر بين الصيغ الآتية للخبر كمثل - زيد منطلق . وزيد المنطلق . المنطلق

زيد . ... يكون في كل واحد منها معنى خاص . فإذا قلت - زيد منطلق فكأنك تخبر

السامع عن انطلاق زيد . وإذا قلت زيد المنطلق فكأنك تعلم أن الانطلاق

قد تم ومع أنه من جانب زيد . أي أنت تخبر أن الانطلاق ثبت من زيد

دون غيره . وإذا كان المقصود التأكيد . فيدخل ضمير الفصل بين الجزئين

فقالوا "زيد هو المنطلق" ويكون الألف واللام في الخبر بمعنى الجنس .

١- الدلائل ص ١٣٦

وترى له في ذلك وجوهاً، أحدها: أن تحصر جنس المعنى على الذى تريد أن تخبر عنه للمبالغة كما فى عمرو هو الشجاع. تريد أنه الكامل، والثانى: أن تحصر جنس المعنى الذى يوخذ من الخبر على الذى تريد أن تخبر عنه لا على المبالغة بل على دعوى أنه لا يوجد إلا منه. كما قال الأعشى.

هو الواهب المأة المصطفاة = إما مخاضاً وإما عشاراً

والثالث. كما قالت الخنساء.

إذا قبح البكاء على قتيل - رأيت بكاءك الحسن الجميلا

فإن الخنساء لا تريد أن ما عدا البكاء عليه فليس بحسن. ولم تقيد الحسن بشئ ولكنها أرادت أن تقره فى جنس ما حسنه الحسن الظاهر الذى لا ينكره أحد.

ويبين عبد القاهر الفرق بين «المنطلق زيد» و «زيد المنطلق» بيد أنهما يبدوان أنهما سواء. ولكن هناك فصلاً ظاهراً بين الكلامين فإذا قلت «زيد المنطلق» فأكدت بأن المنطلق هو زيد. وإذا قلت «المنطلق زيد» أى أنك رأيت شخصاً ينطلق على البعد. ولم تعلم أزيد هو أم غيره (١)

«خصائص إن»

قد تأتى كلمة «إن» فى الجملة. فترى الكلام بها مستأنفاً غير مستأنف. مقطوعاً موصولاً معاً كما ترى فى بيت لبشار حيث يقول هو.

١- عبد القاهر وجهوده البلاغية. ص ١٦٥

بكّرا صاحبيّ قبل الهجير - إن ذاك النجاح في التبكير (١)

فقال خلف الأحمر. لو قلت بدل الشطر الثاني « بكرا فالنجاح في التبكير »، كان أحسن فقال له بشار. إني بنيتها أعرابية وحشية. ولو قلت كما تقول لكان من كلام المولدين. يقول عبد القاهر. إذا جاءت كلمة « إن » على هذا الوجه أغنت عن فاء العاطفة. وأضافت إلى ذلك رونقاً عجيباً. وبذلك يصبح الكلام مقطوعاً موصولاً معاً. يذكر عبد القاهر أن في العبارات البلاغية أسراراً تخفى على كثير من الناس. فقد قال الكندي المتفلسف للمبرد. إني لأجد في كلام العرب حشواً. فيقولون. عبد الله قائم. وإن عبد الله قائم. وإن عبد الله لقائم. فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال المبرد. بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ. فرد المبرد قائلاً. إن المثال الأول إخبار عن قيام عبد الله. والثاني جواب عن سؤال سائل. والثالث جواب عن إنكار منكر. فقد تكررت الألفاظ تبعاً لتكرار المعاني (٢)

ومما تصنعه كلمة « إن » في الكلام أنها تهيئ النكرة لتصبح مبتدأ. فإن كانت النكرة موصوفة وكانت صالحة للابتداء ربما فيكون إبتداؤها أحسن كقول الشاعر -

إن أمرأ مادحاً - عن جوابي شغلك

ومن أثر كلمة « إن » في الجملة. أنه إذا كانت فيها أغنت عن الخبر أحياناً كقول العرب. إن مالاً وعدداً. أي إن لهم مالاً وعدداً. ولو أسقطت كلمة « إن » لذهب رونق الكلام. ويرى عبد القاهر لهذا الحرف دقائق وأسراراً ما يحتاج إلى

١- عبد القاهر ... ص ١٧٢ ٢- المرجع السابق ص ١٧٤

تدبر وروية حتى يصل المرء إلى مافيه من خفايا الأسرار في تأليف الكلام.

"قضايا إنما"

عبد القاهر يبين معنى كلمة "إنما" بقوله تعالى. قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

ومعنى ذلك. ماحرم ربي إلا الفواحش كما قال الفرزدق.

أنا الذائد الحامي الذمار وإنما. يدافع عن أحسابهم أنا ومثلي (١)

فبالقراءة هذا الكلام نستطيع أن نفهم أنه يريد إثبات شئ أو نفيه، فلو كان الإثبات لم يستقم المعنى ذلك لأنه لا يقال. يدافع أنا ويقاتل أنا. وإنما يقال أدافع. وأقاتل. بيد أن المعنى أصبح مايدافع إلا أنا. فصلت الضمير كما تفصله مع النفي إذ ألحقت معه "إلا". ويقول عبد القاهر وإن قالت النحاة إن معنى "إنما" هو معنى "ما وإلا" فهم لا يعنون بذلك أن المعنى واحد وبعينه بل هما لا يكونان سواءً.

"الإستعارة لدى عبد القاهر"

كما نعلم أن عبد القاهر لم يكن يعرف لغة أجنبية غير العربية برغم أنه أورد هذا البيت في كتابه أسرار البلاغة وهو: لو لم تكن نية الجوزاء خدمته = لما رأيت عليها عقد منطق.

وقال "إنه معنى بيت فارسي مترجم" (٢)

فربما يكون قد سمع ذلك لأن كلامه عن اللغة الفارسية كلام غير العارف بها. ولكنه يلجأ إلى العقل في تصور اللغة. فحين يتحدث عبد القاهر عن الإستعارة يقسمها قسمين.

١- المرجع السابق ص ١٧٩ ٢- الأسرار ص ٢٥

(١) مفيدة (٢) غير مفيدة. ومثّل لغير المفيدة بأن تطلق إسم « المرسن » وهو أنف غير الآدمي، على أنف الآدمي. فقال إن هذا اللون من الكلام لا يتصور أن يكون استعارة من جهة المعنى وإنما مدار أمره على اللفظ. ثم قال. إن ذلك لا يتصور أن لا يكون في غير لغة العرب.

هكذا فسّر شوقي ضيف مسلك عبد القاهر في الاستعارة في كتابه « البلاغة تطور وتاريخ » فيتحدث عن الاستعارة ويقول إنها على ضربين. ضرب تصير فيه المشبه به المشبه وتجريه على مثل « كلمت أسداً » وضرب يختلف عن الأول ونفهم بالمثال كقول العرب « أمسكت الريح بيدها الزمام » فالقسم الأول يقوم على ادعاء أن المخاطب أسد. بينما الثاني يقوم على ادعاء أن للريح يداً. وفكرة الادعاء هذه دقيقة لأنه سيرتب عليها فيما بعد أن الاستعارة مجاز عقلي. ثم يلتفت إلى مثل « زيد أسد » فيقول إنه تشبيه على حد المبالغة ولا يسمى استعارة. ويقف عند التمثيل أو الاستعارة التمثيلية. ويمثل لها بنحو « أراك تنفخ في غير فحم » تقوله لمن يعمل عملاً غير مثمر. وعلى شاكلة هذا التعبير « أنت تخط على الماء ».

وبعد ذلك يقرر عبد القاهر أن الكناية أبلغ من التصريح والمجاز أبلغ من الحقيقة. ويحاول التأكيد أن المزية البيانية إنما هي في طريق إثبات المعنى دون المعنى نفسه.

وعندما يتحدث عن الاستعارة غير المفيدة يتضح أن حديثه مبني على العقل فقط فإنه جعل الحكم شاملاً لجميع اللغات. فكان عبد القاهر يرى هذا الإحساس الذي يدفع إلى الاستعارة والتشبيه إحساساً مشتركاً بين الناس جميعاً (١)

---

١ - عبد القاهر وجهوده البلاغية ص ٣٠٧

وذلك يعني أن ترجمة الاستعارة إلى لغة أجنبية. أن يحتفظ فيها بصورة الاستعارة حتى تحتفظ بقوتها في التأثير. ولا يسوغ في الترجمة أن تحول الاستعارة إلى حقيقة. ثم تترجم الحقيقة إلى اللغة الأجنبية لأن الترجمة حينئذ لا تكون للعبارة التي يراد ترجمتها.

الباب الثاني

دور عبد القاهر الجرجاني في تطوير البلاغة العربية

الفصل الأول

البلاغة بين اللفظ والمعنى

الفصل الثاني

علم المعاني «النظم» لدى عبد القاهر الجرجاني

الفصل الثالث

علم البيان لدى عبد القاهر الجرجاني

البلاغة بين اللفظ والمعنى :-

ما دامت البلاغة مقصورة على الحديث المكتوب أو المسموع، فأين تكون من هذا الحديث، أتقع في ألفاظه أم في معانيه؟ ولقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في موقعها، وانقسموا شيعاً وأحزاباً. فمنهم من ذهب إلى جانب اللفظ. ومنهم من انحاز إلى جانب المعنى. ومنهم من اعتبر بينهما صلة لا يمكن فصلها.

مدرسة اللفظ :-

يبدو أن مطلع العصر العباسي، وما رافقه من أفكار واتجاهات أول من مال إلى جانب ترجيح جانب الألفاظ، والعناية بالشكل والمظهر. ومدرسة مسلم بن الوليد خير شاهد(١) ثم جاء الجاحظ، وقال كلمته المشهورة. وقد نقلتها في الباب الأول «المعاني مطروحة في الطريق ...» وتتابع العلماء بعد الجاحظ يكررون قوله، ويؤكدون رأيه، ويرجحون جانب اللفظ. ويعدونه العنصر الأهم في التعبير الجميل. قال أبو هلال العسكري في كتاب «الصناعتين» «وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه. وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً»(٢)

حتى ابن خلدون سار في هذا الاتجاه فقد كان يرى أن الأصل في صناعة النظم والنثر إنما هو اللفظ، والمعاني تابعة للفظ «لأن المعاني موجودة عند كل واحد. وفي

١ - الأغاني ص ٣٦٤
٢ - الصناعتين ص ٥٨

طوق كل فكر منها ما يشأ ويرضى، فلا تحتاج إلى صناعة ويورد تشبيهاً على ذلك ماء البحر، فقد يغترف بآنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف، بينما الماء واحد في نفسه. وإنما الإختلاف قائم بين الأوانى»[1]

وكان أحمد حسن الزيات من المعاصرين رفع هذا اللواء، ومن أقواله: «والحق أن أظهر الدلالات في مفهوم البلاغة هي أناقة الديباجة، وثاقة السرد، وصناعة الإيجاز. وبراعة الصنعة، فإذا كان مع كل ذلك المعنى البكر، والشعور الصادق، كان الإعجاز. وليس أدل على أن الشأن الأول في البلاغة إنما هو لرونق اللفظ. وبراعة التركيب من أن المعنى المبذول أو المرذول أو التافه قد يتسم بالجمال، ويظفر بالخلود، إذا جاد سبكه، وحسن معرضه»[2]

وفي عالم الأدب الغربي من ينحو نحو هذا الإتجاه، فقد روي عن لابرويير LABRUYERE أن هوميروس وأفلاطون وهوراس لم يبن شأوهم إلا بعبارتهم وصورهم، كما روي عن عن شاتوبريان Chateabriand قوله: «لا تحيا الكتابة بغير الأسلوب»[3]

ويخيل إلينا أن الإيمان بهذا الإتجاه أدى بفريق من الأدباء العرب في القرن الخامس الهجري، وفيما تلاه من قرون إلى أن ينزعوا إلى جانب تفضيل الألفاظ، والتأنق بالأساليب على حساب المعاني والجوهر، فغدا أدب هذه العصور ألفاظاً مرصوفة. وقوالب جامدة. وأجساماً بدون أرواح، فانحدر الأدب، وطغت عليه عوامل الإنحطاط.

١- مقدمة ابن خلدون ص ١٣٠٣ ٢- دفاع عن البلاغة ص ٢٥ ٣- المرجع السابق ص ٦٤

وأسف غاية الإسفاف. تأمل قول السيد عبد الله الأدكاوى يرثى الشيخ العشماوى.

يا أمة الإسلام يا أهل الهدى - علماؤه من مبتدٍ أو منتهى

قدماتت عشماويكم تبا - لمن - بالمجد عن ثوب التأسف يلتهى

من بعده للترمذى ... ومسلم - أو للبخارى الصحاح الأوجه

فالشافعى نادى ليوم مصابه - أوَّاه ضاع مذاهبى وتفقهى (١)

هل تحس فى هذه الأبيات بغير كلمات رصفها الشاعر، وملأ بها فراغ الأبيات؟ بل تأمل المعنى، ولماذا يكون الاشتغال بالمجد مانعاً لصاحبه من لبس ثوب التأسف أوجبته؟ هل يعنى ذلك أنه يجب على تلاميذ الراحل ألا يشتغلوا عن تشييع جنازتهم. والعزائيه بالذهاب إلى حلقات الدرس. أو ماذا يعنى؟ وتأمل استعمال قوله «الأوجه» فى البيت الثالث، وعطف «تفقهى»، وهو مفرد على «مذاهبي»، وهو جمع؟ أترضى الفصاحة بهذا اللون من التعبير، بل أيرضى طالب متأدب فى عصرنا أن تنسب إليه مثل هذه الأبيات؟

وتأمل قول ابن سناء الملك فى ممدوحه:

مكمل، وسواه ناقص أبداً - كأنه «كان» قد جاءت بلا خبر

غزا، وطالت مغازيه، وقد غزيت - صلاته حين طال الغزو بالقصر.

الشاعر يحشو فى جو المديح ألفاظ العلوم. ولا يرى أمامه إلا «كان» حين تنتقل من النقصان فى رفع المبتدأ ونصب الخبر إلى التمام حين تكتفى بفاعل. وكأن هذا العمل فى نظره

---

١ - البلاغة العربية فى ثوبها الجديد ص ١٩

شبيه لممدوحه الموصوف بالتمام والكمال. وكذلك فإنه أراد أن يقول شيئاً ما عن حروبه الطويلة فلم يجد أمامه إلا استعارتها لصلاته التي صارت مقصورة لانشغاله بحروبه وغزواته. أفليس في هذا التعبير والتشبيه تفاهة ما بعدها تفاهة. وانحطاط في وادٍ سحيق من سفساف الكلام الرخيص؟

«مدرسة المعنى»

أما الذين ذهبوا إلى المعنى. وقالوا بحسنه في الكلام. نجد فيهم ابن جني في كتابه «الخصائص»، والشريف الرضي في بعض عبارات كتابه «تلخيص البيان في مجاز القرآن» ولعل ما جاء به ابن جني أوضح تعبير عن هذه النظرية. فلقد أفرد باباً مستقلاً لهذا الموضوع. وجعل عنوانه - «باب في الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني»[1] قال فيه -

«إعلم أن هذا الباب من أشرف فصول العربية وأكرمها وأعلاها وأنزهها. وإذا تأملته عرفت منه وبه ما يؤنقك. ويذهب في الاستحسان له كل مذهب بك. وذلك أن العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها. وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة وبالخطب تارة أخرى. وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها. فإن المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها. وأفخم قدراً في نفوسها»

وبعض قائلاً «فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها. وحموا حواشيها.

١- المرجع السابق ص٣٠

وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ. بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني، وتنويه بها وتشريف منها... ونظير ذلك إصلاح الوعاء وتحصينه وتزكيته، وإنما المبغي بذلك منه الاحتياط للموعى عليه. وجواره بعطر نشره، ولا يعر جوهره، كما قد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه، ويغض منه كدرة لفظه وسوء العبارة عنه"(1)

إذن. رأى ابن جني أن العرب إذا اعتنت بألفاظها، فإنما هي تخدم المعاني التي تحملها تلك الألفاظ. والمعاني عندها أكرم قدراً وأرفع شأناً وأعلى مكاناً من الألفاظ والشأن كل الشأن - للمعاني.

١- المرجع السابق ص٢٠

« علم المعاني لدى عبد القاهر »

فقد قالت العلماء إن علم المعاني يعلمنا كيف نركب الجملة، لنصيب بها الغرض المعنوي الذي نريده على اختلاف الظروف والأحوال.

ويبدو أن أول من سمى علم المعاني بهذه التسمية هو شيخ البلاغيين، وسيد أرباب الذوق والإبداع عبد القاهر الجرجاني في كتابه « دلائل الإعجاز ». ولقد كان يريد بكلمة « المعاني » معاني النحو أولاً وأخيراً.

قبل أن نأخذ عبارات الجرجاني المتصلة بهذا الخصوص، نود أن نبين مراده ليسهل فهم كلامه.

نتعلم في النحو - مثلاً - مواطن تقديم المبتدأ ومواطن تأخيره، مواطن حذفه أو ذكره. ومتى يكون معرفة. ومتى يستقيم كونه نكرة. فإذا ما قرنا هذه القواعد بالغاية الفنية التي وعت إلى التقديم أو التأخير. الحذف أو الذكر. التعريف أو التنكير، نكون قد تعلمنا القاعدة النحوية والمعنى المراد منها، وبعبارة أخرى نكون قد ملكنا الجسد، الذي هو القاعدة - والروح - الذي هو المعنى[1].

ونأخذ لذلك مثالاً. قد نجد في العربية عدداً من التراكيب، لا يعدو إعرابها النحوي المبتدأ والخبر من مثل قولنا. زيد كريم، زيد الكريم، الكريم زيد، زيد هو الكريم. فإذا ما اكتفينا بهذا الإعراب بدت هذه العبارات جميعاً على قدم المساواة في حين أنها تختلف في مدلولاتها المعنوية اختلافاً كثيراً. وهذا الاختلاف في المعاني من مهمات علم المعاني.

١- البلاغة العربية في ثوبها الجديد ص٥٢

ومثال آخر: فهلا ندرك الفرق المعنوي بين قولنا: "أنا ما سمعت" "وما أنا سمعت" و"ما سمعت أنا". لكن علم المعاني هو الذي يعلمنا هذه الفروق، ويقفنا على المعاني المتباينة بين كل من هذه التراكيب.

لأجل ذلك قال عبد القاهر الجرجاني ليشرح المراد من علم المعاني: "إنه اختلاف الألفاظ ووضعها في الجملة الموضع الذي يفرضه معناها النحوي" وقال في موضع آخر "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها. هذا هو السبيل فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً، وخطؤه، إن كان خطأً ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه. أو عومل بخلاف هذه المعاملة. فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له"(1)

إذن: فعلم المعاني هو روح النحو، وعلته وبيان أغراضه وأحواله. إضافةً إلى هذا: هو يعلمنا متى نجعل الجملة خبرية، ومتى نجعلها إنشائية، ويبين لنا السبب في هذه وتلك... يعلمنا متى يجب القصر أو الإطناب. الفصل أو الوصل ومتى لا يجب. ثم يأتي لنا ببيان السبب والغاية. ويعلمنا متى ننكر المسند إليه، ومتى نعرفه، ومتى نقدمه ومتى نؤخره.

ولقد ذكر العلماء البلاغيون المتأخرون لهذا العلم تعريفاً. فقالوا: إنه "العلم الذي

١- دلائل الإعجاز ص٤٩

يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال»، ويشير هذا التعريف إلى أن علم المعاني يتضمن بشيئين. أحدهما. دراسة الكلمة المفردة في مختلف أحوالها، والثاني مطابقة هذه الكلمة لمقتضى الحال.

وقسموا لتسهيل دراسة مباحث هذا العلم إلى ثمانية أبحاث. هي:

١- الخبر. ٢- الإنشاء. ٣- أحوال المسند إليه. ٤- أحوال المسند ٥- أحوال متعلقات الفعل.

٦- القصر. ٧- الفصل والوصل. ٨- الإيجاز والإطناب والمساواة.

ولقد وضع عبد القاهر نظريتي علمي البيان والمعاني، أما النظرية الأولى فخص بعرضها وتفصيلها كتابه «دلائل الإعجاز»، وأما النظرية الثانية فخص بها وبمباحثها كتابه «أسرار البلاغة» وينبغي أن نلاحظ منذ أول الأمر أن قسمة البلاغة إلى علوم ثلاثة هي، المعاني والبيان والبديع ما كانت مستقرة إلى عهد عبد القاهر، ومن يرجع إلى مطالع كلامه في «دلائل الإعجاز» يجده يسمي مباحثه فيه مباحث بيانية. وحقاً إنه قدم فيه المجاز. والاستعارة والكناية والتشبيه بيد أنه «إنما جاء بها في ثنايا تفسيره لنظرية النظم التي يبنى عليها الكتاب. واستخرج منها شعب علم المعاني. على نحو سيتضح عما قليل. وتقترن بكلمة البيان في الكتاب كلمتا الفصاحة والبلاغة. وكأنها جميعاً ذات دلالة واحدة. ونفس كتابه سماه «أسرار البلاغة» وهو خالص لمباحث البيان. وللونين من البديع اللفظي هما الجناس والسجع»(١)

١- البلاغة تطور وتاريخ ص١٦٠-١٦١

يتبين من ذلك أن عبد القاهر كان يعتقد أن علوم البلاغة علم واحد تتفرع مباحثه، ويسمى علم المعاني باسم «النظم» في كتابه «الدلائل». «وحقاً أن الجاحظ أول من وضع هذا الاصطلاح وعلق به الإعجاز القرآني. ولكن يتبين أن الأشاعرة كانوا يتمسكون به بينما مضى المعتزلة منذ أبي هاشم الجبائي يضعون مكانه الفصاحة. وتردّوها إلى حسن اللفظ وحسن المعنى»(١)

ويرى عبد القاهر في أماكن متعددة من الدلائل يبدئ ويعيد في إبطال أن يكون مرجع الفصاحة إلى اللفظ أو المعنى. وكان قد كثر بين الأدباء منذ الجاحظ الحديث عن الفصاحة والبلاغة هل مكانهما اللفظ أو المعنى؟ لكن عبد القاهر يرفض كون المزية للمعاني. كما أنكر ذلك للألفاظ. ومضى يقول بأن إعجاز القرآن للعرب عن معارضته وعجزهم عن محاكاته إنما كان لأوصاف نزل بها، وهي أوصاف لم تكن في الألفاظ من حيث هي ألفاظ منطوقة بأصواتها وحروفها وحركاتها وسكناتها. وإنما هي من حيث المعاني المتصلة بتراكيبها وأساليبها. ثم رجع يرد في عنف على أصحاب اللفظ قائلاً «إعلم أني على ما أعدت وأبدأت، وقلت وشرحت، في هذا الذي قام في أوهام الناس من حيث اللفظ. لربما ظننت أني لم أصنع شيئاً. وذلك أنك ترى كأنه قد قضي عليهم أن يكونوا في هذا الذي نحن بصدده على التقليد البحت، وعلى التوهم والتخيل، وإطلاق اللفظ من غير معرفة المعنى. قد صار ذلك الدأب والديدن واستحكم الداء منه،

١- البلاغة تطور وتاريخ ص١٦١

الإستحكام الشديد، وهذا الذي بيناه وأوضحناه. كأنك ترى أبداً حجاباً بينهم وبين أن يعرفوه، وكأنك تسمعهم منه شيئاً تلفظه أسماعهم، وتنكره نفوسهم، وحتى كأنه كلما كان الأمر أبين كانوا عن العلم به أبعد، وفي فهمهم خلافه أقعد، وذلك لأن الإعتقاد الأول قد تشبث في قلوبهم وتأشب فيها. ودخل بعروقه في نواحيها، وصار كالنبات الذي كلما قلعته عاد فنبت، والذي له صاروا كأنهم حين رأوهم يفردون اللفظ عن المعنى. ويجعلون له حسناً على حدة. ورأوهم قد قسموا الشعر، فقالوا: إن منه ما حسن لفظه ومعناه. ومنه ما حسن لفظه دون معناه. ومنه ما حسن معناه دون لفظه، ورأوهم يصفون اللفظ بأوصاف لا يصفون بها المعنى. وظنوا أن اللفظ من حيث هو لفظ حسناً ومزية، ونبلاً وشرفاً»[1]

فالألفاظ المفردة لا تدخل في الإعجاز القرآني لا بالإعتبار إلى أصواتها ولا بالإعتبار إلى معانيها. وبالتالي لا دخل للألفاظ المفردة في الفصاحة. لأن ذلك يؤدي إلى أن الألفاظ معجزة بأوضاعها اللغوية. وما فيها من أصوات ورنة الحركات والسكنات. ولو استقام ذلك لبطل إعجاز القرآن المجيد. وبطلت الدعوى بأن الإعجاز القرآني شئ تجدد بنزول القرآن ولم يكن من قبل. ويبسط عبد القاهر هذه الفكرة لإثبات أن رنة الكلمات في القرآن. ونظام فواصله لا يدخل في الإعجاز. فإنه يسوي بين الفواصل في الآيات والقوافي في الشعر، ولو كان القرآن تحدى العرب بفواصله

١- الدلائل ص٢٥٥

لا ستطاعوا معارضة القرآن بكلامهم على نحو ما صنع مسيلمة الكذاب. ويقول عبد القاهر لتركيب بطلان أن تكون البلاغة صفة للفظ. « لا تخلو البلاغة من أن تكون صفة في اللفظ محسوسة تدرك بالسمع أو تكون صفة فيه معقولة تعرف بالقلب، فمحال أن تكون صفة في اللفظ محسوسة، لأنها لو كانت كذلك لكان ينبغي أن يستوي السامعون للفظ الفصيح في العلم بكونه فصيحاً، وإذا بطل أن تكون محسوسة، وجب الحكم ضرورة بأنها صفة معقولة، وإذا وجب الحكم بكونها صفة معقولة، فإنا لا نعرف للفظ صفة يكون طريق معرفتها العقل دون الحس إلا دلالته على معناه، وإذا كان كذلك لزم منه العلم بأن وصفنا للفظ بالفصاحة وصف له من جهة معناه لا من جهة نفسه »[1]

ونرى عبد القاهر يعترف بالمعنى المتداول للفصاحة الذي توصف به المفردات. إذ يقول « إعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين، قسم يكون فيه الحسن والمزية في اللفظ. وقسم تعود فيه المزية إلى النظم، فالقسم الأول الكناية والإستعارة والتمثيل. وبذلك يجعل الفصاحة قسمين. قسماً يلتقي بالنظم. وقسماً يلتقي بحسن اللفظ. وقد أدخل فيه الصور البيانية. ومن الخصائص المتعلقة بفصاحة اللفظ عذوبته وسلاسته، وسهولة مخارجه في النطق. وكل ذلك إنما هو من صفات الفصاحة التي لا تدخل في إثبات الإعجاز القرآني، يقول « واعلم أنّا لا نأبى أن تكون جزالة الحروف وسلاستها وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلاً فيما يوجب الفضيلة، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز وإنما الذي ننكره ونفتيل رأي من يذهب إليه أن يجعل

١- الدلائل ص ٢٨٤

ويقول عبد القاهر بأن الإعجاز القرآني يرجع إلى الأسلوب، وما وراء جمال المعنى وجمال اللفظ. فإن الفصاحة لا تبرز في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بتراكيبه وصياغته النظمية. ويشرح ذلك متحدثاً عن التقدم والتأخر والحركات التي هي مختصة بالإعراب. ولا يرضى أن يكون لبنية اللفظ نفسها وحسن النغم وعذوبة القول والاستعارة والمجاز دخل في الفصاحة التي هي مناط الإعجاز. وهو يعتقد بأن التفسير المستقيم للإعجاز يناسب أن يطلب في علامات الكلام النحوية. ويبحث مراراً عن صحة تأليف الكلام، وعن مراعاة الروابط والتقديم والتأخير والاتساق اللفظي.

لم يشر عبد القاهر إلى هذه المباحث الأخيرة في دلائل الإعجاز، ولكنه أشار إليها في أسرار البلاغة. ومن المؤكد أن عبد القاهر قد استفاد فائدة كبرى مما كتبه نحاة العرب منذ سيبويه في خصائص التعبيرات النحوية، وانتهى به إلى وضع نظريته في علم المعاني، وصور الأداء النحوية للكلام. أو بعبارة أخرى في النظم والروابط التركيبية للعبارات.

قد تكلم عبد القاهر عن صور من الاستعارة والتشبيه التمثيلي، وأثبت أن الجمال يرتبط لا يأتي من الكلمات المفردة المجردة من معاني النحو. وأثبت أن الاستعارة لا تقوم على النقل باسم مكان إسم، وإنما هي على ادعاء معنى إسم باسم آخر.

ويلتفت عبد القاهر إلى معنى مهم هو أن تفسير بيت أو آية من الذكر الحكيم لا يساويان

في النظم وأداء المعنى. وذلك يشهد بأن الإعتماد في البلاغة والإعجاز إنما هو على النظم. فيكون لتفسير القرآن الكريم الإعجاز. ولتفسير البيت البلاغة، وقد أخذ عبد القاهر من ذلك فكرة دقيقة في بحث السرقات الشعرية، وهي أن بيتين مما اتفقا في المعنى لا بد أن يقوم بينهما خلاف في أدائه ونظمه وهيئة تعبيره. ويفترقان بخصائص وصفات كالخاتم والخاتم. والقرط والقرط، وسائر أصناف الحلى التي يضمها جنس واحد، ولكنها تختلف أشد الاختلاف في الهيئة والصفة، وسمى هذا الفرق باسم "الصورة"، ويشرح ذلك قائلاً:

"واعلم أن قولنا الصورة إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا، ولما رأينا البينونة بين آحاد الناس تكون من جهة الصورة. فكما بَيْنَ "فرق" إنسان من إنسان وفرس من فرس بخصوصية تكون في صورة هذا ولا تكون في صورة ذلك. وكذلك الأمر في المصنوعات، فكان بَيْنَ خاتم من خاتم وسوار من سوار بذلك. وكذلك وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقاً عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا: للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك. واعلم أنه لو كان المعنى في أحد البيتين على هيئته وصفته في البيت الآخر، وكان المثالي من الشاعرين يجيئك به معاداً على وجهه لم يحدث فيه شيئاً ولم يغيره صنعة لكان قول العلماء في شاعر: إنه أخذ المعنى من صاحبه فأحسن وأجاد. وفي آخر إنه أساء

وقصر، لغواً من القول، من حيث كان محالاً أن يحسن أو يسئ فى شئ لا يصنع به شيئاً، وكذلك كان يكون جعلهم البيت نظيراً للبيت ومناسباً له خطأً منهم، لأنه محال أن يناسب الشئ نفسه، وأن يكون نظيراً لنفسه، وأمر ثالث وهو أنهم يقولون فى واحد: إنه أخذ المعنى فظهر أخذه، وفى آخر: إنه أخذه فأخفى أخذه. ولو كان المعنى يكون معاداً على صورته وهيئته وكان الآخذ له من صاحبه لا يصنع شيئاً غير أن يبدل لفظاً مكان لفظ لكان الإخفاء فيه محالاً لأن اللفظ لا يخفى المعنى، وإنما يخفيه إخراجه فى صورة غير التى كان عليها،"(1)

هى فكرة دقيقة طريفة، ولو اتخذها أصحاب البلاغة فى عهد عبد القاهر وبعده لقاموا بالتخفيف من حدة بحثهم فى السرقات الشعرية، وعرفوا أن للاحق دوماً فضلاً فى الصورة التى يأتى فيها المعنى على نحو جديد. وقد أدى عبد القاهر إلى ذلك بحثه فى نظم الكلام ونسقه، واتخاذهما ميزاناً للبلاغة. وردّها إلى طريقة التأليف للعبارات وسياق الألفاظ فيها، وهو يلح فى إلحاح هذه الفكرة حتى يوضح فكرة النظم وشعبه وخصائصه ونسبه المختلفة، وهى علاقات ونسب يكشفها العقل البصير الذى يمكنه أن يصل بطرائق العلاقات النحوية فى التعبيرات إلى قضايا البلاغة. ودقائقها فى الصياغات المختلفة.

وعبد القاهر مع اعترافه بأن العقل يمكنه الوصول إلى فهم هذه الدقائق والخفايا يعتبر الذوق ضرورياً لتمييز جيد الكلام من رديئه - فلا بد لمن يريد أن يدرك دقائق النظم

---

(1) الدلائل ص ٣٥٥

في الكلام من ذوق يستطيع به أن يدرك الأسرار ويبصرها. ومن فقد هذا الذوق لم يستطع الفهم. لأنه فقد الأداة التي بها يعرف ويتنبه،

يقول عبد القاهر: إن حرم الذوق. عليه أن يقلد من ملكه وعرفه، كيف يصور مزايا النظم، وعليه أن يأخذ نفسه بالتدريب حتى تتكون له الحاسة التي يبصر بها خصائص الكلام،

وتكلم في بعض صفحات الكتاب عن السجع والجناس ليدل على أنهما لا يحسنان إلا في ترتيب مستو منتظم، والحسن البلاغي لا يكون في نفسهما كما لا يكون في السهولة الظاهرة البعيدة في الألفاظ، والسلاسة والسلامة، ونجده في خاتمة أسرار البلاغة يعود إليهما بفضل من بيان. ومن الملاحظ أنه لم يعقد باباً للإيجاز والإطناب في الكتاب على نهج أصحاب البلاغة بعده، بيد أنه قام بتكرير الحديث في صدورها. وقام بعقد فصل مستقل لإيجاز الحذف وأشار إلى مجال الإيجاز. وأما الإطناب فقدم منه صوراً كالتكرار. والتأكيد. والإيضاح. ومقابلة العبارات، والتقسيم والبيان بعد الإبهام.

وواضح من كل ذلك أن عبد القاهر قام بتغيير نظرية النظم بحيث ردها إلى المعاني الإضافية في كتابه «دلائل الإعجاز» وهذه المعاني الإضافية تبحث في نسق الكلام طبق المضامين، وهي معان تعود إلى الإسناد وخصائص مختلفة في المسند إليه والمسند، وفي أضرب الخبر وفي متعلقات الفعل من مفعولات وأحوال. والفصل بين

الجمل والوصل، وفي القصر وفي الإيجاز والإطناب، وهي نفسها الأبواب التي ألف منها من خلفوه علم المعاني.

وحقاً كانت بعض الملاحظات والمصطلحات متناثرة في كتابات من سبقوه. فإنه جمع ملاحظات سابقيه، وابتكر فكرة ونظرية جديدة. فإنه لا يكفي أن يكون هناك من تحدثوا عن باب الوصل والفصل، وباب الإيجاز والإطناب، وباب الإنشاء والخبر، فإن الحديث عن ذلك كله في شكل ملاحظات جزئية متناثرة هنا وهناك شيء، وضمها إلى نظرية متشعبة شيء آخر. ولقد جمع عبد القاهر هذه الملاحظات فيما بعد، وضم إليها مجهوداته. ووضع أصوله، وصور فصوله تصويراً دقيقاً، بحيث نشأ منها علم مستقل من علوم البلاغة هو علم المعاني، أو فكرة النظم،

إن هذا المذهب الذي قد سبق به عبد القاهر، أحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوربا في هذا العصر الحديث، يقول الدكتور مندور، لقد فطن عبد القاهر إلى أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ، بل هي مجموعة من العلاقات، وهو مذهب العالم السويسري فردناند دي سوسيري، المتوفي سنة ١٩١٣. ونحن لا يهمنا الآن من هذا المذهب الخطير إلا طريقة استخدامه أساساً لمنهج لغوي في نقد النصوص. وهو المذهب المعتبر اليوم في العالم الغربي. المنهج اللغوي هو أكثر المناهج خصباً لا في الأدب فقط. بل وفي كافة العلوم التاريخية، ولكن لسوء الحظ لم يفهم منهج عبد القاهر على وجهه. ولا استغل كما ينبغي. لقد قامت في أوربا اليوم نظريات

والأصول على فكرة أن اللغة مجموعة من العلاقات، واستخدمت تلك الأصول في فلسفة اللغات، وفي نقد الآداب، وأما عندنا فقد غلب تيار البديع تيار علم المعاني، إن منهج عبد القاهر فلسفة لغوية ترى في اللغة مجموعة من العلاقات. والنقد يقوم على تلك الفلسفة، فيرى أن الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويعمد بها إلى وجه من التركيب دون وجه. فالأساس علم النحو، على أن يشمل النحو علم المعاني. وأن يتعدى الصحة اللغوية إلى الجودة الفنية. وفي النهاية تحكيم للذوق الفني (١)

هكذا يعتبر عبد القاهر العقل هو الذي ينظم الفكرة ويرتبها وينسقها أولاً. ثم يأتي دور الألفاظ في النطق أو الكتابة، فيكون ترتيبها على حسب ترتيبها في الذهن وتنسيقها في العقل، فاللفظ يتبع المعنى في النظم، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس، وجب أن يكون اللفظ الدال عليه أولاً قبل غيره.

نرى عبد القاهر متأثراً في نظريته هذه بعدة مؤثرات من بينها.

١- الجاحظ في أن القرآن الكريم معجز (بالنظم)، وفي قيمة الجمال اللفظي، والمعنوي،

٢- عبد الجبار في أن الإعجاز القرآني ليس مرده إلى جمال اللفظ، وحسن المعنى، وأن الفصاحة لا ترجع إلى اللفظ أو المعنى. إنما المرجع هو نظم الكلام على طريقة مخصوصة. وعبد القاهر زاد هذه النظرية بسطاً وشرحاً وتحليلاً. وألم بكل جوانبها. وأوضح كل معالمها حتى صار هو صاحبها،

١- النقد المنهجي ص ٣٢٧

٣- الثقافات الجديدة آنذاك، والصراع بين أنصار الثقافة العربية والنحوية وبين أنصار الثقافة اليونانية وفلسفتها ومنطقها، ومن مظاهر هذا الصراع تلك المناظرة التي قامت بين المرزبانى المعروف بالسيرافي، وبين متى بن يونس في مجلس الوزير الفضل بن جعفر، حيث دافع السيرافي عن النحو العربي، وانتصر (متى) للمنطق اليوناني، ومن كلام السيرافي: «وإن كانت المعاني المدركة لا يتوصل إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف، أفليس قد لزمت الحاجة إلى معرفة اللغة؟. الإسم والفعل والحرف مفتقرة إلى وضعها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها. ومضى يقول إن معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير. وتوخي الصواب في ذلك. ويقول - لم تدعي أن النحوي إنما ينظر في اللفظ، والمنطقي إنما ينظر في المعنى؟ هذا يصح لو كان المنطقي يسكت ويجيل فكره في المعاني مكتفياً بالوهم أو الخاطر. أما وهو يريد إبراز ما في خاطره فلابد له من لفظ... إذ قال لك القائل: كن نحوياً لغوياً فصيحاً. فإنما يريد، افهم عن نفسك ما تقول ثم اقصد أن يفهم عنك غيرك.»(١)

٤- ثم لا ننسى أن عبد القاهر كان نحوياً كبيراً. وأنه يشير إلى آراء النحاة في شرح نظريته، كما يشير إلى ما قاله سيبويه في تقديم المفعول على الفاعل أحياناً إذا كان بيانه أهم، وذلك حين يصدر نظريته في المعاني الإضافية، ويتحدث عن التقديم

١- البيان العربي ص١٢٠ وما بعدها.

والتأخير.

٥- ويضرب عبد القاهر أمثلة للكلام الذى تقتصر مزيته على جمال المعنى، والمزاوجة، والسجع، دون أن يتحقق فيه نظام الصياغة وحسن التأليف. ودون أن يحوى شيئاً من الدقائق واللطائف المتصلة بالفعل وبالتعريف والتنكير، مثل قول الجاحظ فى مفتتح كتاب الحيوان - "جنبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة. وجعل بينك وبين المعرفة نسباً - وبين الصدق سبباً. وقول بعضهم "ما أفصح لسانه - وأحسن بيانه. وأمضى جنانه"

ولقد تأثر عبد القاهر بفكرة أرسطو فى كتابه "الخطابة" حيث قال فيه: "وأما اللفظ المتخاذل، وهو المقطع مفرداً مفرداً فهو شئ غير لذيذ. وإن كان الكلام مقطعاً ليس فيه اتصالات وانفصالات لم يلتذ به.(١)

١- البلاغة تطور وتاريخ ص١٨٠

علم البيان لدى عبد القاهر الجرجاني :

وضع عبد القاهر نظرية البيان كما وضع نظرية المعاني لأول مرة في تاريخ العربية، وجمع جميع الفصول والأبواب التي قام ببحثها البلاغيون السابقون في هذا المضمار على طريقة متناثرة ومبعثرة. في كتابه «أسرار البلاغة»، حيث قام بتمييز الأقسام والفروع. وحلل أمثلتها في نحو رائع بديع في أربع مائة صفحة،

ومن المؤكد أنه حين خص هذا الكتاب بمباحث البيان لم يكن يفكر في تسمية كتابه بهذا الاسم، إذ كان يسمي مباحثه في المعاني باسم علم البيان تارة وعلم الفصاحة تارة أخرى. وما إن نتقدم في هذا الكتاب حتى نجده يشير إلى أن الاستعارة من البديع، ويرى أنه كان يشعر بأن كل ما سمي بعده باسم البديع والمعاني والبيان إنما يتشكل في علم واحد وهو علم البلاغة. وخصائص التعبير الجمالية. لذلك قرن عبد القاهر كلمة البلاغة إلى كلمة أسرار، وجعلهما عنواناً لهذا الكتاب، بينما نه في الدلائل يقرن الفصاحة دوماً إلى البلاغة، ويضمنهما مدلولاً واحداً. وفي ذلك كله ما يدل على أنه ما كان استقلال علم البيان يتمثل بالشكل الذي استقل به عند الزمخشري ومن خلفوه.

وربما كان، الذي دفعهم إلى ذلك أنهم رأوا البيان في القرآن الكريم منوهاً به، وذلك بالآية القرآنية «الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان. علّمه البيان»، ومضى بعدها يقول إن فضيلة البيان لا تعود إلى اللفظ من حيث اللفظ، وإنما تعود إلى النظم وترتيب الكلام وفق ترتيب معانيه في النفس،

ويحاول عبد القاهر في الكتاب الإبانة عن الفروق الدقيقة في التركيب، غيراً نه لا يسعه بيان هذه الفروق في الكتاب على نحو ما وسعه في كتابه «دلائل الإعجاز»

وبالنظر إلى مباحث هذا الكتاب يتبين أنه صنف هذا الكتاب بعد الدلائل. فإنه يستخدم فيه من الدقة، والإستيعاب، والضبط، والإحكام، وما نجد فيه من آراء نفسية لا عهد لنا بها في الدلائل. وكأنما اكتملت لديه الأداة في تصوير دقائق التراكيب البلاغية، وأثرها في النفس[1].

بدأ عبد القاهر أسرار البلاغة بالحديث عن الجناس والسجع سعياً لإثبات أن الجمال فيهما لا يعود إلى جرس الحروف وظاهر الوضع اللغوي، وإنما يعود إلى قضايا معنوية من شأنها إرضاء العقل، وبمقدار هذا الرضا يكون جمال الجناس، ولذلك لم يعد جناس أبي تمام في قوله حين يعد الحسن بن وهب.

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت = فيه الظنون أمذهب أم مذهب.

والذي أدى إلى الكراهية، هو إعادة كلمة مذهب مضمومة الميم، التي تظهر التصنع والتكلف، والبون الشاسع بين هذا الجناس وجناس بعض الشعراء في قوله -

ناظراه فيما جنى ناظراه - أو دعاني أمت بما أودعاني -

فإن الشاعر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك، وقد أحسن الزيادة ووفاه» فجمال الجناس يعود إلى هذا الخداع المغري

١- أسرار البلاغة ص ٣٦٨

الذى جعلنا نظن أن معنى الكلمة الثانية هو معنى الكلمة الأولى. ولكننا على الفور نتنبه إلى أنها غيرها، وأنها تعطينا شيئاً جديداً. وكل هذا يعود إلى المعنى النفسى لا إلى صوت الحروف الحسى. ويتضح من هنا أنه لم يبحث فى الدلائل إلا عن الجناس التام، بينما نه بحث فى أسرار البلاغة عن الجناس الناقص أيضاً، مثل قول أبى تمام فى وصف بطولة لبعض الجيوش،

يمدون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ - تصول بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ.

وقد قام عبد القاهر بالتعليق عليه بأن جمال هذا الجناس يرجع أيضاً إلى المعنى النفسى، وذلك أن السامع يتوهم قبل أن يسمع الحرف الأخير فى كلمتى «عواصم»، و«قواضب»، أنهما نفس الكلمتين اللتين مضتا. حتى إذا تممهما ووعاهما، انصرف عنه ذلك التوهم، وحصلت له فائدة جديدة. ولذلك حسن الجناس لما تضمن من هذه المفاجاة ومن هذا الخداع، على أنه يناسب عدم إكثاره، وإلا يخرج عن صوره التى يرضاها العقل، وتحبها النفس، إلى صور متكلفة وأشكال مستكرهة.

وقد بحث عبد القاهر عن السجع كما بحث عن الجناس، ويكره كثرة استخدامه فى الكلام، حتى لا تصبح أغراض الكلام ضئيلة، وتكون المعانى تحت الألفاظ. وتتحول الألفاظ إلى حلى وزينة خالصة بحتة تغمر المعانى حتى لا تكاد تتبين. وقد نوه بأسلوب الجاحظ بأنه ما كان يذهب إلى السجع فى مقدمات كتبه مخافة أن يجنى على المعانى.

ويقول إن الكاتب لا يزينه السجع في كلامه وكتابته إلا أن يأتي عفواً وبدون تعمد في طلبه، حتى لا يدخل الخلل في الكلام. ثم يتقدم فيعرف الاستعارة بقوله «هي أن يكون اللفظ أصل في الوضع اللغوي معروف، وتدل الشواهد على أنه مختص به حين وضع. ثم يستخدمه الشاعر أو الكاتب في غير ذلك الأصل مع وجود قرينة دالة على ذلك. كقول «كلمت بحراً»، أي جواداً.

ويتحدث عن الأثر النفسي للاستعارة، وأنها تخلق في السامع متعة وتجر إليه أنساً وألفة، ويبين أقسامها. فيقول إن الاستعارة إما تجري في الأسماء، وإما تجري في الأفعال. وسمى البلاغيون فيما بعد هذين القسمين باسم الاستعارة الأصلية والتبعية، ويوزع الاستعارة التي تجري في الأسماء في قسمين. إما محققة وإما مرموزاً إليها. أو تصريحية ومكنية كما قال البلاغيون فيما بعد. الأولى التي ينقل فيها الاسم عن مسماه الأصلي إلى شئ آخر، وكأنك تخبر به عن صفة الموصوف مثل «كلمت أسداً»، وأنت تعني رجلاً شجاعاً. والثانية: لا ينقل فيها اسم عن مسماه الأصلي، وإنما تثبت لازمة من لوازم الشئ لشئ آخر، كقولك «يد الريح تضرب الشجر ضرباً عنيفاً»، فليس هنا ادعاء بأن المنقل تقدم، بيد أنك قمت بتشبيه شئ باليد، يعني أنك تريد إثبات اليد للريح، وفرق ثان، هو أن وجه الشبه في القسم الأول موجود في المشبه، أما في القسم الثاني، فلا يوجد فيه وجه الشبه، إنما هو وصف توطيه للشبه.

إذ تثبت للريح يداً وقوة وتصرفاً. فإن الإستعارة المكنية لا تقوم على التشبيه، وإنما تقوم هي على بث الحياة والحركة في المشبه لغرض المبالغة،

ثم يتقدم إلى الإستعارة في الفعل. فيقول إن الإستعارة في مثل «نطقت الحال بالفرقة» ليست في فعل «نطق»، إنما هي في مصدره، وهو النطق الذي استعير للدلالة. فإنه يقول إن الإستعارة في الفعل قد تكون من جهة فاعله كما في المثال الماضي، وقد تكون من جهة مفعوله كما في قول ابن المعتز.

جمع الحق لنا في إمام - قتل البخل وأحيا السماحا.

فالفعلان «قتل» و«أحيا» إنما أصبحا مستعارين لتعديتهما إلى البخل والسماح. وكان يجدر بعبد القاهر أن لا يجعل في الأفعال استعارة، لأنها لا تجري فيها إلا إذا كانت لوازم للمشبه به، أو أضيفت إلى مشبه، أو بعبارة أخرى إلا إذا كان في الكلام استعارة مكنية. إذ من الممكن أن يغض النظر في البيت عن الإستعارة في الفعل، وينظر إلى البخل والسماح، فإنه أثبتت لهما صفتان من صفات الأشخاص.

ويفصل عبد القاهر القول في الجامع بين طرفي الإستعارة «وجه الشبه»، فيقول إنه إما يكون جنساً شاملاً لهما كاستعارة الطيران للعدو الشديد، فإن الجامع بينهما السرعة في قطع المسافة، وإما أن يكون صفة مشتركة في جنسين مختلفين كالشجاعة في الأسد والإنسان،

يقول عبد القاهر الجرجاني إن أحسن أشكال الإستعارة، ما كان فيه الجامع عقلياً. وهو يأتي على ثلاث صور، إحداها، أن يؤخذ وجه الشبه من الأشياء المشاهدة المحسوسة للمعاني المعقولة كاستعارة النور للحجة الكاشفة عن الحق المزيلة للشك في آية القرآن الكريم: «واتبعوا النور الذي أنزل معه»، وثانيتها، أن يؤخذ وجه الشبه من الأشياء المحسوسة كقول الرسول صلى الله عليه وسلم «إياكم وخضراء الدمن»، فقد استعيرت خضراء الدمن للمرأة الفاتنة الجميلة نبتت في منابت السوء. بجامع حسن الظاهر في رأي العين مع فساد الباطن، ويقرن هذه الصورة إلى صور من التشبيه الحسي، وجه الشبه فيها عقلي، والصورة الثالثة: أن يؤخذ وجه الشبه من المعقول للمعقول كاستعارة الموت للجهل والعدم للوجود[1].

وبعد ذلك يشرع في التشبيه والتمثيل فيقول إن التشبيه على قسمين. قسم عادي لا يفتقر إلى تأول وتفكير عميق، كتشبيه الخدود بالورد والشعر بالليل وبعض الفواكه بالعسل وبعض الألبسة والأقمشة بالحرير، وبعض الروائح بالمسك، وكتشبيه الرجل بالأسد والثعلب، وقسم ثان يحتاج فيه إلى شيء من التأول والروية والتفكير، كتشبيه الحجة والبرهان في الظهور والوضوح بالشمس، ويتفاوت هذا القسم تفاوتاً شديداً، فمنه ما يقرب مأخذه ومصدره كمثل قولهم «ألفاظ كالماء في السلاسة»، يريدون أنها سلسة لا تكد اللسان ولا تتعبه كالماء السائغ

١- البلاغة تطور وتاريخ ص١٩٥

في الخلق، ومنه ما يحتاج فيه إلى كثير من الذهانة والفطنة كقول البعض، وقد سُئل عن بني المهلب «هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها»، ويقصد بذلك أنهم سواسيون في النبل والجود والشجاعة. ويقول إن التشبيه عام، والتمثيل أخص منه. فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلاً. وفحوى الكلام لعبد القاهر أن التمثيل يختص بالتشبيهات المركبة التي يكون فيها وجه الشبه عقلياً منتزعاً من أمور عديدة، ويُجمع بعضها إلى بعض، ثم يستخرج من مجموعها كالآية الكريمة «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً»، فإن وجه الشبه فيها عقلي وهو حرمان الانتفاع بشئ نفيس مع وجوده معهم. ويبين عبد القاهر روعة التمثيل، ومواقع هذه الروعة حسب مقتضيات المقامات والأحوال المختلفة قائلاً.

« مما اتفق عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو أبرزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً. وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً. فإن كان مدحاً كان أبهى، وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهز للعطف، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح. وأقضى له بغرّ المواهب والمنائح «العطايا»، وأسير على الألسن

وأذكر، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر، وإن كان ذماً كان مسُّه أوجع وميسمه ألذع، ووقعه أشد، وحدّه أحد. وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور وسلطانه أقهر وبيانه أبهر. وإن كان افتخاراً كان شأوه أمد، وشرفه أجد، ولسانه ألد. وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسخائم أسلّ، ولغرب حدّ الغضب أفلّ. وفي عقد العقود أنفث، وعلى حسن الرجوع أبعث، وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه، والزجر. وأجدر بأن يجلي الغياية، ويبصر الغاية. ويبرئ العليل ويشفي الغليل، وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه، وتتبعت أبوابه وشعابه»[1]

بذلك يصور عبد القاهر مدى تأثير الكلام في نفوس السامعين والقارئين. وهذا يدل على أن النفوس تأنس وتألف حين تنتقل بالتمثيل من خفي إلى جلي. ومن مجهول إلى معلوم، ومن معقول إلى محسوس، كقول بعض الشعراء.

وأصبحت من ليلى ـ الغداة ـ كقابض ـ على الماء خانته فروج الأصابع ـ

نجد الشاعر في هذا البيت يمثل خيبة ظنه، وبوار سعيه في أنه لم يظفر من ليلى بأي طائل بصورة حسية تتلذذ بها نفس السامع بجانب ما تعبر عنه، وكأنما تجعله يلمس الخيبة وبوار السعي لمساً. وكلما كان المشبه به غريباً نادراً في التمثيل الذي لا حاجة فيه إلى اثبات وبرهان على شيء يمتنع. كان ذلك أوقع في النفوس.

---

١ ـ أسرار البلاغة ص١٠١ وما بعدها

وأحسن لدى العقول. ويتم هذا القياس في جميع صور التشبيه عند عبد القاهر.
فكلما كثر التباعد بين الشبيهين كان ذلك أروع وأحسن، يقول عبد القاهر إن التشبيهات قد تفقد نضارتها وطرافتها لكثرة استخدامها وشيوعها في الناس حتى تصبح مبتذلة كتشبيه العيون بالنرجس، ولأجل ذلك كانت التشبيهات الخاصة المبتكرة التي يستأثر بها الأدباء هي التي تأخذ من النفوس موقعها، وتقع في القلوب أحسن موقع. كقول البحتري.

دان على أيدي العفاة وشاسع ـ عن كل ند في الندى وضريب

كالبدر أفرط في العلو وضوءه ـ للعصبة السارين جد قريب.

فإن الشاعر وصف الممدوح بنهاية البعد والقرب إذ مثل بالبدر إفراط العلو، وإفراط الدنو بوصول الأضواء للسارين، فإن التمثيل في البيتين دقيق يحتاج إلى تأمل وروية.

يقول عبد القاهر إن هذا الباب ينفتح بالفكر والروية والقياس والاستنباط، وطبيعي أن يكون التشبيه بين الأشياء المشتركة في جنس واحد قريب في غير حاجة إلى تفكير عميق بعيد، والتشبيه الذي يحتاج فيه إلى مثل هذا التفكير هو التشبيه المنعقد بين أجناس متباعدة مع أن يكون التشبيه صحيحاً معقولاً، بحيث ينسجم طرفا التمثيل (المشبه، المشبه به) انسجاماً دقيقاً.

يبحث عبد القاهر عن التشبيهات المركبة التي يعلل فيها وجه الشبه على الهيئات والأوضاع والأحوال كقول بعض الشعراء.

الشمس كالمرآة في كف الأشل.

فقد شبهت المرآة بالشمس في الاستدارة، والإشراق والتلألؤ، وليس ذلك فحسب، بل لاحظ أيضاً حركة الشمس المتصلة المتموجة، ومن أجل ذلك قرنها بالمرآة في كف الأشل، إذ لا تقر في يده. بل لا تزال تتحرك وتموج نورها.

وهكذا يمثل بقول بعض الشعراء العباسيين في صفة مصلوب.

كأنه عاشق قد مد صفحته - يوم الوداع إلى تودیع مرتحل

أو قائم من نعاس فيه لوثته - مواصل لتمطيه من الكسل،

فإن طرافة هذا التشبيه إنما ترجع إلى كثرة ما فيه من التفصيل. فقد شبه المصلوب بالمتمطي المواصل لتمطيه. وذكر السبب في ذلك وهو لوثة النعاس والكسل، وبهذا التفصيل حسن التشبيه.

يعقد عبد القاهر فصلاً لبيان الفرق بين التشبيه المركب، والتشبيه المتعدد الطرفين. موضحاً أن طرفي التشبيه في الأول «التشبيه المركب» هيئة حاصلة من أمور عديدة. بينما في التشبيه المتعدد الطرفين تكون الهيئة الحاصلة أموراً متعددة متقابلة كقول امرئ القيس،

فإنه شبّه الرطب الطرى من قلوب الطير بالعناب، واليابس المتقادم منها بالحشف البالى، وليس فى التشبيه هيئة ملاحظة فى أطرافه. ويضرب لهذا التشبيه المتعدد مثلاً آخر هو قول المتنبى،

بدت قمراً وماست خوط بانٍ - وفاحت عنبراً ورنت غزالاً .(١)

وقد فسر عبد القاهر هذا البيت فى المجاز الحكمى فى «دلائل الإعجاز»، وقال عنه هناك أنه من التشبيه البليغ وصاحبى أنه قام بتصحيح رأيه فى «أسرار البلاغة»، بيد أن آراء عبد القاهر البلاغية فى الأسرار أدق وأوضح منها فى الدلائل.

وينتقل عبد القاهر إلى الإبانة عن فروق دقيق بين التمثيل والتشبيه العادى، وذلك أنك فى تشبيه المفردات تستطيع أن تقلب التشبيه للمبالغة، فتحول المشبه إلى المشبه به، والمشبه به إلى المشبه كأن تشبه النجوم بالمصابيح والورود بالخدود والنرجس بالعيون، والبروق بالسيوف، والنجوم بأنوار الرياض، وشجر السرو بالجوارى، والصباح بوجه الممدوح، والرمان بثدى الكواعب، والجداول والأنهار بالسيوف والطل بالدموع إلى غير ذلك. بيد أنك لا تستطيع عكس التشبيه وقلبه إذا لم يقصد فيه إلى ضرب من المبالغة فى إثبات صفة لشئ كما يزعم عبد القاهر. وأما إذا قصد إلى الجمع بين شيئين فى مطلق الصورة، والشكل، واللون حينئذ لا يحسن القلب والعكس،

١- البلاغة تطور وتاريخ ص٢٠٣

ويبحث عبد القاهر في الفرق بين الاستعارة والتمثيل، فيقول إن الاستعارة تستخدم فيها اللفظ في غير ما وضعه الواضع، وأنها تقوم على التشبيه الذي قصد به إلى المبالغة. ويقول إن التشبيه يدخل في الحقيقة، والاستعارة تدخل في المجاز، إما بنقل اللفظ عن أصله كمثل «رأيت أسداً» أو بإضافة الصفة إليه كمثل «أنارت الحجة» ومضى يقول إن الاستعارة لابد لها من قرينة معنوية كانت أو لفظية، ويناقش التشبيه البليغ في مثل «زيد أسد»، ويظهر خلافه مع الذين يقولون استعارة أو تشبيهاً. ويقول إن علي بن عبد العزيز الجرجاني ذهب إلى أنه تشبيه، وهو برهن عليه، ويقيم الدلائل، ولا فرق لديه بين أن كان المشبه به خبراً كما في هذا المثال، أو أن كان في حكم الخبر كخبر كان وأخواتها، وكالمفعول الثاني لباب علمت، أو كان حالاً، ويقول إن المجيء بالأسد في المثال السابق إنما جيء به لإفادة التشبيه، فمن الخطأ أن يسمى ذلك استعارة، بيد أن عبد القاهر يفرق بين المشبه به الذي يحسن دخول أداة التشبيه عليه، والذي لا يحسن فيه ذلك. فإذا كان المشبه به معرفة مثل «زيد الأسد»، يحسن إدخال الكاف عليه فتقول «زيد كالأسد» ومثل هذه الصيغة يحسن أن تسمى تشبيهاً لا استعارة. بخلاف «زيد أسد» فإنه قد يفتح لك باب العذر في أن تسمي هذه الصيغة استعارة، لأن أداة التشبيه لا تحسن معها بمعنى أنه لا يحسن أن تقول «زيد كأسد».

وعلى هذا القياس ينبغي لمن يقولون بأن التشبيه البليغ استعارة، أن يقفوا برأيهم عند مثل هذا التعبير والتعبيرات السابقة له التي لا يحسن فيها دخول أدوات التشبيه على المشبه به.

ويقف عبد القاهر عند التجريد في مثل «لقيت به أسداً» و «رأيت منه ليثاً» وينفي أن يكون ذلك استعارة، وكأنه يجعله تشبيهاً. على أنه ذكر أن الآية الكريمة في الكفار والنار «لهم فيها دار الخلد» ليس فيها استعارة ولا تشبيه، إنما كل ما هناك إنه انتزعت من النار دار الخلد، وجعلت معدة للكفار تهويلاً ومبالغة.

وبعد ذلك يبحث في السرقات الشعرية، ويوزعها بين نوعين، نوع عقلي، ونوع تخييلي، ويقول إن أبين وأوضح صور السرقة الشعرية، القسم الأول، أي القسم العقلي الذي يجري مجرى الأدلة والبراهين كقول المتنبي،

إذا أكرمت الكريم ملكته - وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فإن مثل هذا المعنى تتفق العقلاء على الأخذ به، والحكم بوجوبه في كل جيل وأمة. ويوجد له أصل في كل لغة ولسان. أما القسم التخييلي فهو الذي لا يمكن أن يقال إنه صدق، وما أشبهه ثابت وما نفاه منفي. ويذكر أنه يأتي على طبقات وفي درجات. فمنه ما يكون مصنوعاً واستعين عليه بالحذق والمهارة حتى أعطى شبهاً من الحق. كما استخدم البحتري هذا التخييل والقياس في شعره. ويمدح المذموم كقوله.

وبياض البازي أصدق حسناً - إن تأملت من سواد الغراب -

قد بنى الشاعر قياسه على أن المذموم الظاهر في الشيب هو البياض، والمذموم الحقيقي إنما هو إدبار الحياة، وذهاب رونق الشباب، وانطفاء بهجته، وقد عرض الشاعر البياض في الشعر عرضاً يثبت أنه شئ حسن مقبول لدى الناس من سواد الغراب، وإن مثل هذا التخييل يقبل في الشعر لأنه غير مطلوب بشهادة عقلية في أفكارهم، ويبين عبد القاهر أن التخييل أنواعه كثيرة. فمنه ما يقرب من الحقيقة حتى يكاد يلصق بها. ومنه ما يبعد عنها خطوة أو خطوات، وقد سماه البلاغيون فيما بعد من الزمان باسم «حسن التعليل»، وهو أن يدعي الشاعر لصفة ثابتة في شئ علة يختلقها، كما قال المتنبي في بعض ممدوحيه -

لم تحاك نائلك السحاب وإنما - حمت به فصبيبها الرحضاء

فهو يقصد القول بأن السحاب لا تشبه عطاءك ونعمتك، وإنما صارت محمومة بسبب عطائك، فما المطر الذي ينزل من السماء من خلال السحاب، إنما هو عرق الحمى السيال المتقطر، فنحن نستطيع القول إن الشاعر حسن التعليل بأن الجواد يشبه بالغيث - ولكنه أخرج المعنى في علة غير حقيقية. وهنا يقدم عبد القاهر صوراً أخرى يتأول فيها الشعراء الصفة من غير أن يكون هناك معلول وعلة كقول ابن المعتز -

قالت كبرت وشبت، قلت لها - هذا غبار وقائع الدهر

ترى في هذا البيت واضحاً أن الشاعر لا يحاول إثبات الشيب، والدفاع عنه عيبه، كما فعل البحترى فيما صور ببياض البازى، بل أنكره دفعة، وتأول هذا التأويل الطريف.

ما السرقة الشعرية، هو أن يتفق الشاعران في معنى من المعاني، فيقول الجرجاني إن اتفاقهما في الغرض المشترك العام كالكرم والجود مثلاً لا يدخل في هذا الباب.

فإنه القسم العقلى من السرقة. إنما الذى يدخل في هذا الإطار هو اتفاقهما في الدلالة وطريق التعبير عن الغرض، ويقول عبد القاهر، إن من هذه الدلالة ما يدخل في المشترك العام المستقر في العقول والعادات كالتشبيه بالأسد في الشجاعة، وبالبحر في السخاء وبالبدر في النور والبهاء. وكل ما يدخل في هذا النوع لا يستقيم أن يدخل في باب السرقة الشعرية إلا أن تقترن به لطيفة، أو يركب عليه معنى بحيث ينقلانه من الاشتراك العام إلى أسلوب طريف نادر من الدلالة على المعاني. وهذه الدلالة الخاصة أو بعبارة أخرى القسم التخييلي من السرقة، هى التى يحتوى عليها البحث في السرقات، كمثل قول أبى نواس في المديح.

إن السحاب لتستحى إذا نظرت ـ إلى نداك فقاسته بما يرط.

فإن تشبيه الجواد بالغيث والسحاب عامى مشترك. لكن تصوير السحاب في صورة الخجول، وأنه يزن فيضه بفيض كف الممدوح، أخرج المعنى من الاشتراك إلى الانفراد ومن العموم إلى الخصوص. وهكذا مرثية أبي الحسن الأنبارى لابن بقية حين صلب،

فقد قلب الشاعر جملة ما يستقبح في المجتمع البشرى من أحوال المصلوب إلى أحوال حسنة مقبولة. وتأول تأويلات عجيبة من مثل قوله.

علو في الحياة وفي الممات - لحق أنت إحدى المعجزات

كأن الناس حولك حين قاموا - وفود نداك أيام الصلات

مددت يديك نحوهم احتفاءاً - كمدهما إليهم بالهبات (١)

«الحقيقة والمجاز»

يبحث عبد القاهر عن الحقيقة والمجاز. فأولاً يقدم تعريفهما. فيقول إن الحقيقة «هو كل كلمة مستخدمة فيما وضعها الواضع، والمجاز» كل كلمة مستخدمة في غير ما وضعها الواضع لوجود قرينة كالشجاعة في الأسد، السخاء في الغيث، والسحاب، وهذا في الاستعارة. أما غيرها أى المجاز المرسل الذى لا تقوم فيه العلاقة على الشبه والمشابهة، فإن العلاقة لا تتضح فيه هذا الوضوح. ولذلك إذا استخدمت كلمة اليد بمعنى النعمة، فهناك من الضرورى أن يذكر المنعم مثل «كثرت أيادى على عندى» فلا يصح أن يقال كثرت الأيادى، لأنها لا تدل على النعمة إلا مضافة إلى المنعم، وربما يكون استخدام هذه الكلمة في القدرة والإتحاد أكثر.

ويخرج عبد القاهر إلى بحث حد الجملة فى الحقيقة والمجاز، ويقدم لذلك بحث فى الإثبات والنفى، وكيف أن المثبت والمنفى يسمى مسنداً وحديثاً، والمثبت له، والمنفى عنه يسمى مسنداً إليه ومحدثاً عنه، وأيضاً كيف أن الإثبات والنفى يكونان أفعالاً، وأوصافاً

١- البلاغة تطور، تاريخ ص٢١٣

وأنهما قد يتعلقان بالفاعل وقد يتعلقان بالمفعول. ويقول عبد القاهر: إنه ينبغي إذا أردت أن تقضي في الجملة بمجاز أو حقيقة أن تنظر إليها من وجهين: إحداهما أن تنظر إلى ما وقع بها من الإثبات أهو في حقه وموضعه، أم قد زال عن الموضع الذي ينبغي أن يكون فيه.

والثانية - أن تنظر إلى المعنى المثبت نفسه ما وقع عليه الإثبات -

وبذلك يقسم عبد القاهر المجاز في الجملة قسمين: مجازاً في الإسناد، ومجازاً في المسند. ويعود المجاز الأول إلى العقل، وكذلك مرجع الحقيقة التي تقابله، وهي «كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه في العقل واقع موقعه»

ويأخذ عبد القاهر في الإبانة عن المجاز العقلي في الإسناد، وهو نفسه الذي سماه في «دلائل الإعجاز» باسم المجاز الحكمي. وقدم المثال له هنا بقول الصلتان العبدي،

أشاب الصغير وأفنى الكبير - كر الغداة ومر العشي -

ويمثل للمجاز في المثبت بالآية الكريمة «أو من كان ميتاً فأحييناه، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس» فقد جعل العلم والهدى والحكمة حياة للقلوب. وبذلك كان المجاز في المثبت وهو الحياة، وأما في الشعر، فإن الشيب والفناء أسند إسناداً مجازياً إلى كر الغداة ومر العشي، بينما أسناده الحقيقي إلى الأجل جلاله، وهذا مجاز يعرف بالعقل. بينما المجاز في الآية الكريمة إنما يعرف عن طريق اللغة. ويقول عبد القاهر إن المجاز العقلي يأتي على صورتين: إما أن يكون الشيء الذي أثبت له الفعل مما لا يدعي أحد أن له تأثيراً

فيه مثل « محبتك جاءت بي إليك » وإما أن يكون قد علم من اعتقاد المتكلم أنه لا يثبت الفعل إلا لربه، وأنه ليس دهريًا ولا معطلاً. ويحمل هنا على المفسرين الذين يفسرون بعض الآيات بظاهرها غير ملتفتين إلى ما فيها من مجاز (١)

ويعقد عبد القاهر فصلاً يتكلم فيه عن المجاز ومعناه وحقيقته، ويقول إنه على وزن « مفعل » من جاز الشيء إذا تعداه. وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة، وصف بأنه مجاز. ويقول إنه لابد للمجاز البياني من شرط هو أنه ينبغي أن يلاحظ الأصل مع نقله إلى معناه الجديد. ومعنى الملاحظة، أن تكون هناك ملابسة كالسببية في استخدام اليد بمعنى النعمة لأنها سببها. ومعنى ذلك أن تلاحظ في نقل الإسم علاقة ليمكن أن نسميه مجازاً، كما نستخدم كلمة الراوية للتعبير في المزادة التي يحمل فيها الماء لعلاقة أو ملابسة هي المجاورة. وهكذا يسمي العرب البعير حفضاً، وهو اسم لمتاع البيت الذي يحمل عليه. وقد تكون العلاقة من إطلاق جزء الشيء عليه كتسميتهم الربيئة عيناً، والناقة باباً. ومن ذلك قولهم: رعينا الغيث أي النبات لكونه سببه، وعلى شاكلة هذا المثال قول العرب « أصابنا السماء » أي المطر.

ويبين عبد القاهر أن المجاز أعم من الاستعارة، فكل استعارة مجاز، وليس كل مجاز استعارة، ويقول إن الاستعارة خاصة بنقل الإسم عن أصله إلى غيره للتشبيه على حد المبالغة. ولذلك أدخلوها في البديع. أما المجاز المرسل فليس فيه مبالغة، ولذلك

---

١ - البلاغة تطور وتاريخ ص٢١٥

لا يدخل في البديع .

من هنا يخرج عبد القاهر إلى فصل جديد يتحدث فيه عن أن المجاز ينقسم قسمة عامة إلى قسمين ، مجاز لغوي ، يدور بين الاستعارة وهذه العلاقات والملابسات التي ذكرها ، والتي سمى مجموعها من جاءوا بعده مجازاً مرسلاً . وهو يتعلق بالمفردات . ثم مجاز عقلي وهو يتعلق بالجمل والإسناد ، مثل «وشى الربيع الروض» فإن في ظاهر اللفظ ما يدل على أن للربيع فعلاً أو صنعاً وأنه شارك الحي القادر في صحة الفعل منه .
وذلك تجوّز من حيث المعقول لا من حيث اللغة ، إذ اللغة إنما تتدخل في المفردات ودلالاتها في الإسناد ، وإثبات الفعل للشيء ، وهل يستطيع أحد أن يخالف في أن استخدام كلمة أسد في دلالة جديدة هي الرجل الشجاع عمل يتصل باللغة .

هنا يأخذ عبد القاهر ما ذهب إليه في الدلائل من أن المجاز جميعه عقلي ، وأنه لابد أن يفهم في كل مجاز معنى الكلمة ، ومعنى ثانياً وراءه . وأنك إذا قلت «كلمت أسداً» ، لم تكن فقط بصدد عمل لغوي . إنما أنت بصدد عمل عقلي ، فقد تصرفت بالكلمة تصرفاً جديداً . وهو تصرف أسعفك به العقل . إذ لم تطلق المشبه به على المشبه إلا بعد علمك أنه يدخل في جنسه .

وأورد عبد القاهر هذا الرأي في شكل اعتراض على كلامه ، وأنه قدم في سياقه بهذا الكتاب «الأسرار» ما يقتضي أن طريق المجاز كله العقل . وأن لا حظ فيه للغة .

ويبدأ عبد القاهر الرد بأنه يسلم بأن الاستعارة تقوم على ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به . ولكنه يقول إن أساس المجاز فيها ، هو إجراء الاسم على شيء لم يوضع له في اللغة ، ومن هنا جعل اللغة طريقاً له

وحاول عبد القاهر التوفيق بين رأيه القديم في الدلائل - أي أن المجاز كله عقلي ؟ ورأيه الحديث في الأسرار ، فجعل في المجاز اللغوي عملاً عقلياً داخلياً . ولكنه وصفه بأنه لغوي واعتد بأن الأساس فيه نقل كلمة عن مدلولها الأصلي إلى مدلول آخر لعلاقة المشابهة أو غير المشابهة ،

وأخيراً يتكلم عبد القاهر في نوع من الصيغ سماه بعض البلاغيين المجاز تجوزاً ، وهو لا يجري فيه نقل لكلمة من معناها الأصلي إلى معنى جديد . وإنما يتغير فيه الحكم الإعرابي بسبب ما يدخله من الحذف . مثل " واسأل القرية " ، فأصل التعبير " واسأل أهل القرية " فقد كانت مجرورة فأصبحت منصوبة ، وواضح أن كلمة القرية لم تستعمل في غير ما وضعت له ، ويرى عبد القاهر يرد هذا المجاز ، لأنه ليس فيه نقل عن مدلولات أصلية ، وليس فيه علاقة ، وما كان الحذف في الكلام هو لا يوجب المجاز ، إنما هي أوصاف تتصل بأغراض المتكلم ، ومن هنا كانت عبارة " واسأل القرية " من الممكن أن لا يراد معها حذف ، وذلك إذا جاءت في كلام رجل مر بقرية قد خربت وباد أهلها . فأراد أن يقول لصاحبه واعظاً مذكراً ، أو لنفسه متعظاً ومعتبراً - إذن كانت العبارة " سل القرية عن أهلها ، وقل لها ما صنعوا " -

الباب الثالث

أسرار البلاغة بين المعاصرين ومن بعدهم

الفصل الأول

الموازنة بين أسرار البلاغة والأعمال البلاغية المعاصرة الأخرى.

الفصل الثاني

البلاغة بعد عبد القاهر الجرجاني

الفصل الثالث

تأثير أسرار البلاغة على النقد الجديد وآرائهم عنه.

الموازنة بين أسرار البلاغة والأعمال البلاغية المعاصرة الأخرى

إذا قمنا بموازنة دقيقة بين أسرار البلاغة والكتب البلاغية الأخرى التي قام بتأليفها معاصرو عبد القاهر الجرجاني، كابن رشيق القيرواني وابن سنان الخفاجي الحلبي، فإن الزمان قد جمع هؤلاء الثلاثة بيد أن المكان باعد بينهم بحيث توفى عبد القاهر الجرجاني سنة ٤٧١ من الهجرة. وانتقل ابن رشيق إلى جوار ربه سنة ٤٦٣ هج، ووافت الوفاة ابن سنان الخفاجي سنة ٤٦٦ هج. فعبد القاهر عاش في جرجان، والثاني قضى حياته في القيروان، والثالث مازال في حلب. وعني الثلاثة بالدراسات البلاغية. وتركوا لنا مؤلفات عديدة نادرة.

وإذا أمعنا النظر نرى جلياً أن هذا البعد الشاسع بين الأماكن التي عاشوا فيها يجعل من المشكل أن يقبل أحدهم أثرات صاحبه، وإن وجد بعض التشابه هناك في بعض الموضوعات التي سلكوها. فليس ذلك إلا لأن طبيعة المنهج أدت إليه. فمثلاً نرى عبد القاهر، وابن رشيق يتحدثان عن فضل الشعر ومزيته، والرد على من كرهه. ذلك لأن طبيعة الكتابين « الأسرار، والعمدة » تطالب ذلك. فيرى عبد القاهر محاسن الكلام، والبلاغة الأخاذة تظهر في الشعر بصورة رائعة بارعة. ولعتبر من الخطأ أن يحرم نفسه وكتابه من هذا المورد العذب الذي تتجلى فيه البلاغة. فكان من الضروري أن يشرع في كتابه بالذودة عن هذا المورد العذب الذي يستمد منه نماذجه وأمثلته.

وإذا رأينا في العمدة لابن رشيق نجده يضع كتابه في صناعة الشعر، ونقده. فيلزمه أن يبتدئ كتابه بما يناسب الشعر ويلائمه، فإنه يؤلف كتابه لنقده.

فإذا كان المؤلفان قد اتحدا في بعض المواضيع التي تدور عن الشعر وعن تيهم، أو تحط من قدره أو شأنهم. فليس ذلك إلا لأن هذه العناصر مشهورة متداولة. بيد أن نجد بين الكاتبين مختلفاً اختلافاً واضحاً. بينما يدافع عبد القاهر عن الشعر فقط. إذا بابن رشيق يمضي أماماً، ويأتي بأبيات الخلفاء والقضاة والفقهاء. وليقوم بتقديم موضوعات تاريخية عن الشعر. فيذكر من أعلاه الشعر ومن سفله، ومن أعطاه الشعر ومن حرمه. ويورد شفاعات الشعراء عند الملوك وتحريضهم. وبعد ذلك ينقل الأخبار في احتماء القبائل واعتزازهم لشعرائهم، ويجعل باباً لمنافع الشعر ومضاره. وآخر للتكسب بالشعر والغيرة منه. ويعقد باباً لتنقل الشعر وجريانه مجرى المثل في القبائل. ثم يأتي على بيان القدماء والمحدثين. والمشاهير من الشعراء. ويعقد باباً لطبقات الشعراء.

بعد ذلك يشرع في ذكر حد الشعر. وعن اللفظ والمعنى والمطبوع والمصنوع. وعن الوزن والقافية والتقفية والتصريع والرجز والقصيد والقطع والطوال. وعن آداب الشاعر. وعن عمل الشعر، وعن المقاطع والمطالع.

حينما يتكلم ابن رشيق عن البلاغة. يظهر البعد واضحاً بين المنهجين. فنرى عبد القاهر يسعى سعياً شاقاً ليدرك سر البلاغة. ويود أن يتثبت في حقيقتها. بينما ابن رشيق يقوم بمجرد إيراد أقوال منقولة عن البلاغة في هذا الباب. كما هو ينقل عن خلف الأحمر قوله: البلاغة لمحة دالة. وعن الخليل بن أحمد قوله. البلاغة: كلمة تكشف عن البقية.

وعن بعض البلغاء قوله: البلاغة قليل فهمها، وكثير لا يسأم. وإلى غير ذلك مما أورده ابن رشيق.[1]

وكذلك يتكلم ابن رشيق عن صياغة الكلام بعيداً كل البعد عن منهج عبد القاهر. فإنه صدّر بأن نقل عن الجاحظ قوله: أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً واحداً. وسبك سبكاً واحداً، ويأتي بأمثلة للنظم المتناسب الملائم السهل على اللسان. ولما تثقل على اللسان النطق به. فشتان بين فكرة النظم عند عبد القاهر وتلك التي بنى عليها كتابه. وهذه التي أوردها ابن رشيق، وهي ناحية التناسب بين المعاني وسهولة الألفاظ.

كما أورد في هذا الباب أن بعض الناس يستحسنون الشعر مبنياً بعضه على بعض. أما ابن رشيق فقد استحسن أن يكون كل بيت من القصيدة قائماً بنفسه غير محتاج إلى ما قبله ولا إلى ما بعده، إلا في أماكن معروفة مثل الحكايات وما يحكيها. فأنت ترى بوناً شاسعاً بين الفكرتين «فكرة عبد القاهر، وفكرة ابن رشيق» وإذا رأينا منهج عبد القاهر في أبواب المجاز، والاستعارة، والتمثيل فوجدنا منهج ابن رشيق غير منهج عبد القاهر. بيد أنهما اتفقا في تمجيد الاستعارة والمجاز. يقول ابن رشيق «العرب كثيراً ما تستعمل المجاز، والاستعارة، وتعده من مفاخر كلامها، فإنه دليل الفصاحة، ورأس البلاغة. والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع»[2]

١- العمدة ص١٦١ ٢- نفس المرجع ص١٢٨

يعتبر ابن رشيق التشبيه والإستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز. لأنه يجعل ما عدا الحقائق من جميع الألفاظ، ثم لم يكن محالاً محضاً، فهو مجاز لإحتماله وجوه التأويل. أي أنه لا يمكن التوصل إلى معناه مباشرة. بل يحتاج إلى تدبر وروية. وكذلك يرى ابن رشيق أن الإستعارة أفضل المجاز، وأول أبواب البديع، فيقول: ليس في حلى الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها. ونزلت منازلها.

هنا يجدر بالذكر أن عبد القاهر كان متفقاً على أن الإستعارة من البديع أيضاً. وهذا يدل على أن عبد القاهر كان يفكر كما فكر من جاء بعده، وأدخل هذه الأبواب بعضها في بعض في علم واحد.

وكذلك تحدث ابن رشيق عما دعاه بالإستعارة المكنية. ولكن شتان بين ما جاء به ابن رشيق من أمثلة لها، وبين تلك الدراسة الطويلة التي قام بها عبد القاهر. وربما اتفق عبد القاهر وابن رشيق في البرهنة والإستدلال بمصدر واحد. كما نقل الإثنان عن صاحب الوساطة.

وإذا رأينا ابن رشيق يتكلم عن التشبيه فنجده لم يتأثر تأثراً ما بعبد القاهر، وقد اتفق هو وعبد القاهر في أن حسن التشبيه أن يقرب بين البعيدين، حتى تصبح بينهما مناسبة واشتراك وملائمة حسنة. ولم يوافق قدامة في أن فضل التشبيه ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما. حتى يدنى بهما إلى حالة الإتحاد

وإذا رجعت إلى ما قام الرجلان بإيراده في صدد الكناية، وجدتهما غير موافقين. هكذا

نجد أن عبد القاهر لم يقم بالتفريق بين الكناية والتعريض. بيد أن ابن رشيق قام بالتفريق بينهما.

وبعد ذلك مضى صاحب العمدة في الحديث عن فنون البديع، لم يلتق بأكثرها صاحب

الدلائل والأسرار. وغالب الظن أن كتاب عبد القاهر لو وصل إلى ابن رشيق ونقل عنه.

لذكره في كتابه وأشار إلى ما نقله عنه.

بناءً على ذلك نرجح أن الرجلين لم يلتق أحدهما بصاحبه في أي نوع من أنواع الإتصال.

"عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجي"

كذلك لم يعرف أحد من عبد القاهر وابن سنان الخفاجي صاحبه، ولم تتم الموافقة إلا

في عناوين وموضوعات. فقد ألف عبد القاهر كتابيه "دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة"

ليوضح بهما سبب إعجاز القرآن وبلاغته. كما قام ابن سنان بتأليف كتابه "سر الفصاحة"

فقال ابن سنان "المعجز الدال على نبوة محمد نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم، هو القرآن،

والخلاف الظاهر فيما به كان معجزاً على قولين:

أحدهما: أن القرآن خرق العادة بفصاحته وبلاغته، وجرى ذلك مجرى قلب العصا حية.

وليس للذاهب إلى هذا المذهب مندوحة عن بيان ما الفصاحة التي وقع التزايد

فيها موقعاً خرج عن مقدور البشر.

وثانيهما: إن وجه الإعجاز في القرآن المجيد، صرف العرب عن معارضته، مع أن فصاحة

القرآن كانت في مقدورهم، لولا الصرف، وأما القائل بهذا يجرى مجرى الأول في الحاجة إلى تحقق الفصاحة ما هي؟. ليقطع على أنها كانت في مقدورهم. ومن جنس فصاحتهم. ونعلم أن مسيلمة وغيره لم يأت بمعارضة على الحقيقة. لأن الكلام الذى أورده خالٍ عن الفصاحة التى وقع التحدى بها في الأسلوب المخصوص"(١)

لكن عبد القاهر ينكر القول بالصرفة في إعجاز القرآن. ويرى ذلك رأياً لا سداد فيه. فلو أنهم أدركوا أنهم صاروا عاجزين بعد أن كانوا قادرين. لقالوا للرسول (صلعم) إنا كنا نستطيع قبل هذا الذى جئتنا به، ولكنك قد سحرتنا، وحلت بما جئت به بيننا وبين مقدرتنا على معارضته. وكان من الواجب أن يتذاكروا ذلك فيما بينهم، وأن يشكوه بعضهم إلى بعض. فيقولوا: ما لنا قد نقصنا في قرائحنا، وحدث كلول في أذهاننا. ولكن لم يروَ أن كان منهم قول في هذا المعنى. أما ابن سنان يرجح وجه إعجاز القرآن بصرف العرب عن معارضته، بأن سلبوا العلوم التى بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك، وعلى هذا لا يرى ما رآه الرمانى. من أن بين تأليف حروف القرآن وبين غيره من كلام العرب، كما بين المتنافر والمتلائم.

هكذا لم يعن عبد القاهر بالألفاظ المفردة. فيقول بأن البلاغة لا ترجع إلى الألفاظ بوجه من الوجوه. ولا يعتبر الألفاظ تتفاوت إلا في ناحيتين. كثرة الاستعمال وقلته. وسهولة المخرج على اللسان وصعوبته. في جانب أن كتب ابن سنان أكثر من ربع

١- سر الفصاحة ص٤

كتابه « سر الفصاحة » في الحديث عن اللفظ المفرد . وبدأ هذا الحديث عن الأصوات والحروف ومخارجها . وعن اللغة ، وتقسيم تأليف الحروف ثلاثة أقسام : الأول تقسيم الحروف المتباعدة - وهو الأحسن المختار . والثاني تضعيف الحرف نفسه . والثالث تأليف الحروف المتجاورة ، وهو وهو إما قليل في كلامهم أو منبوذ رأساً .

بعدما تكلم ابن سنان عن الفصاحة والبلاغة يذكر شروط الفصاحة في اللفظ المفرد . ثم يأتي إلى فصاحة المركب ، وشروط هذه الفصاحة ، ويذكر حسن الكناية من أصول الفصاحة . وشروط البلاغة ، وقام ابن سنان بمعالجة الكناية بضرب الأمثلة الجيدة والرديئة فحسب ، لا كما عالجها عبد القاهر .

وقد اتفق رأى ابن سنان رأى عبد القاهر في أن السجع جيد ، إذا وقع سهلاً متيسراً بلا تكلف وتصنع ، وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه . ولا أحضره إلا صدق معناه ، دون موافقة لفظه ، ولا يكون الكلام الذي قبله إنما يتخيل لأجله ، وورد ليصير وصلة له(١) وذكر ابن سنان الجناس والطباق أيضاً . ولكن من زاوية غير الزاوية التي نظر إليها عبد القاهر . فذكر التعريف ، وعني بالأقسام ، وبإيراد الأمثلة الكثيرة الجيدة والرديئة . وقد تعرض ابن سنان للوضوح والغموض في الكلام ، وأسباب الغموض . أما عبد القاهر فيرجح الكلام الذي يدعو إلى فكر عميق في استخراجه ، وتدبر للتوصل إلى معناه ، كما سبق أن ذكرت . وأما ابن سنان فيرى من شروط الفصاحة والبلاغة أن يكون

١- المرجع السابق ص١٦٣ - ١٦٤

معنى الكلام واضحاً ظاهراً، لا يحتاج إلى فكر في استخراجه واستنباطه، وتأمل لفهمه، ولكل منهما براهينه التي قام بإيرادها في كتابه.

ولما يذكر عبد القاهر عن التعقيد والغموض في الكلام وأسبابه، فإنه يعيد سبب التعقيد في الكلام إلى أن اللفظ لم يتبع المعنى، أو إلى أن المعنى الأول لا يقود في سهولة إلى المعنى الثاني في باب الكناية.

أما ابن سنان الخفاجي فقد ذكر ستة أسباب للغموض في الكلام على السامع. فيبين أن الإشتين يرجعان إلى اللفظ. بحيث تكون الكلمة غريبة نابية من وحشي اللغة أو تكون الكلمة من الألفاظ المشتركة - والإثنان يعودان إلى تأليف الألفاظ، وهما فرط الإيجاز. وإغلاق النظم كأبيات المعاني من شعر أبي الطيب وغيره، والإثنان في المعاني، وهما: أن يكون في نفسه دقيقاً، والثاني: أن يكون بالحاجة إلى مقدمات إذا تصورت بنى ذلك المعنى عليها. فلا تكون المقدمات حصلت للمخاطب، فلا يقع له فهم المعنى[1].

وقد ذكر ابن سنان أن الكاتب كيف يمكنه التخلص من هذه المغالب الفنية. ثم يتكلم عن المعاني، وما يناسب أن يكون لها من صحة التقسيم، وصحة التشبيه. هنا نجد ابن سنان يتفق قدامة في أن الأحسن في التشبيه أن يكون أحد الشيئين يشبه الآخر في أكثر صفاته ومعانيه، هذا ما لم يقره ابن رشيق، وما لم يره عبد القاهر. ويتكلم ابن سنان عن المبالغة في المعنى والغلو، فيرى أن الناس متباينوا الميول في

١- سر الفصاحة ص ٢١٠

حمد الغلو وذمه، فمنهم من يختاره ويقول: أحسن الشعر أكذبه. ويرى ابن سنان أن ذلك هو مذهب اليونانيين في شعرهم.

وما الذى اختاره ابن سنان هو مسلك حمد المبالغة والغلو، ودليله فيه أن الشعر مبنى على الجواز والتسمح «لكنه يرى أن يستعمل في ذلك كاد، وما جرى في معناها ليكون الكلام أقرب إلى الصدق والصحة» (١)

لكن موقف عبد القاهر كان مع من يقول: إن خير الشعر أصدقه. وقد تكلم ابن سنان عن صحة النسق والنظم. ولكن بمعنى لا صلة بينه وبين نظم عبد القاهر. ويوضح ذلك بقوله، «صحة النسق والنظم هو أن يستمر في المعنى الواحد، وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر، أحسن التخلص إليه، حتى يكون متعلقاً بالأول وغير منقطع عنه» من هذا الباب خروج الشعراء من النسيب إلى المدح: فإن المحدثين أجادوا التخلص حتى صار كلامهم في النسيب متعلقاً بكلامهم في المدح لا ينقطع عنه، فأما العرب المتقدمون فلم يكونوا يسلكون هذه الطريقة. وإنما كان أكثر خروجهم من النسيب إما منقطعاً، وإما مبنياً على وصف الإبل التى ساروا إلى الممدوح عليها.

بذلك قد اتضح أن أحد هؤلاء الثلاثة لم يؤثر في صاحبه أى نوع من التأثير ولم يقرأ أحدهم ما كتبه صاحبه. وقد اتضح أيضاً أن عبد القاهر كان أكثر الثلاثة تأثيراً في البلاغة العربية من بعده، مما كان هو من ناحية تقسيم علومها إلى المعانى والبيان

١- المرجع السابق ص ٢٥٦

والبديع، أو من ناحية علم المعاني. أو من ناحية تنظيم علم البيان، أو من ناحية الأقسام التي وضعوها للمجاز، والاستعارة، والتشبيه، أو من ناحية أمثلته التي تداولتها كتب البلاغة من بعده.

البلاغة العربية بعد عبد القاهر الجرجاني :-

قد نبغ في القرن السادس الإمام الذي لا يشق غباره ، ولا يدرك معناه - وذلك هو جار الله محمود بن عمر الزمخشري صاحب تفسير القرآن الكريم المسمى بـ « الكشاف » ، وصاحب كتاب « أساس البلاغة » المتوفى عام ٥٣٨ هجـ .

أما كتابه « الكشاف » فقد أودعه أسرار البلاغة وأساليبها . وأوضح حقائقها ومجازاتها واستعاراتها وتشبيهاتها في تحقيق رصين وتدقيق بارع - وأوضح ما فات عن السابقين . ولا جرم اتخذه العلماء شرعة يصدرون عنها ، ويرتوون منها .

كتاب الله تعالى نموذج البلاغة العالية ، ومثال الإعجاز الإلهي الذي تحدى مصاقع البيان وخطباء العرب العظام ، فأفحمهم وأبطل حجتهم ، ولا سيما إذا تصدى لإيضاح بلاغته والإفصاح عن مكنونات أساليبه عالم فحل مثل جار الله أتى بالعجب العاجب . وهذا هو الذي حدث - فأنت لو قرأت الكشاف وجدت مسائل العربية ، نحوها وبلاغتها التي عرضت في ثوب رائع حسن الأسلوب ودقته .

أما كتابه « أساس البلاغة » فهو كتاب نادر فذ في العربية ، فلا نعرف أحداً من علماء هذه اللغة سعى من قبل الزمخشري أن يعمد إلى مواد اللسان العربي مادة فمادة يبين في كل مادة منها الإستعمالات الحقيقية لها ، ثم يبين الإستعمالات المجازية - وبقدر ما أفادت علوم البلاغة من تمثيل الفكرة العلمية في كتاب الكشاف قد أفادت من الأمثلة التي تنطبق على هذه الأفكار في كتاب « أساس البلاغة »

ولست أنا ببالغ ما أريد أن أقوم بتقريره في ذهنك إذا قلت لك: إن تفسير الكشاف قد تكفل ببيان مسائل العربية كلها. وتعرض لآراء العلماء السابقين بالشرح والرد. وإنك لو خبرته لعرفت مدى صدق هذه الدعوى.

فهنا أقدم مثالاً واحداً جمع فيه صاحب الكشاف عديداً من علوم البلاغة. فإنه يفسر آية القرآن الكريم «إياك نعبد وإياك نستعين» إيا: ضمير منفصل للمنصوب. واللواحق التي تلحقه من الكاف والهاء واليا في تولك إياك، وإياه، وإياي لبيان الخطاب، والغيبة، والتكلم، ولا محل لها من الإعراب. كما لا محل للكاف في مثل «أرأيتك»، وليست بأسماء مضمرة، وهو مذهب الأخفش، وعليه المحققون. وأما ما حكاه الخليل عن بعض العرب «إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب» فنادر شاذ لا يعول عليه، وتقديم المفعول لقصد الاختصاص كقوله تعالى «قل أفغير الله تأمروني أعبد»، والمعنى: نخصك بالعبادة، ونخصك بطلب المعونة. فإن اعترض أحد، كيف العدول عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب. قلت هذا يسمى الالتفات في علم البيان. قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى «حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم» وقد التفت امرؤ القيس ثلاثة التفاتات في ثلاثة أبيات.

تطاول ليلك بالأثمد ـ ونام الخلي ولم ترقد

وبات وباتت له ليلة - كليلة ذي العائر الأرمد

وذلك من نبأ جاءني - وخبرته عن الأسود

وذلك على عادة افتنان العرب في الكلام، لأن الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب. كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، فنرى في الآية ذلك الخالق البارئ المتميز بتلك الصفات فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة. لا نعبد غيرك، ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به - فإن قلت لم قرنت الاستعانة بالعبادة؟ قلت ليجمع بين ما يتقرب به العباد إلى ربهم وبين ما يطلبونه، ويحتاجون إليه من جهته. فإن قلت: فلم قدمت العبادة على الاستعانة؟ قلت: لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة عليها، فإن قلت: لم أطلقت الاستعانة؟ قلت: لتتناول كل مستعان فيه، والأحسن أن تراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة. ويكون قوله «إهدنا» بياناً للمطلوب من المعونة، كأنه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا: إهدنا الصراط المستقيم، وإنما كان أحسن لتلاؤم الكلام، وأخذ بعضه بحجز بعضه (١)

فإذا قرأت هذه العبارة فأمعن النظر فيها. ثم أحص المسائل العلمية التي تعرض لبيانها في تفسير جملة واحدة، فهو يشرح لك مرة مسألة اختلف فيها النحاة،

١- الكشاف ج ١ ص ٤٨

ويبين لك الرأى الناضج فى هذه المسألة، وبعد ذلك يوضح لك سبباً من الأسباب التى تقتضى تقديم المعمول على العامل، ويستشهد لك عليها، ويقوم بشرح قضية الإلتفات ويبين بعض أسراره والدواعى إليه، ويبرهن لك عليه.

وهكذا قد حدد العلامة الزمخشرى أنواع المجاز، وفصل بين ضروبه المختلفة وبين المجاز والتشبيه، وبين المجاز وبين الكناية. فإنك تراه فى كتابه «أساس البلاغة» يدخل فى باب المجاز أحياناً بعض التشبيهات وأحياناً بعض الكنايات على طريقة المتقدمين. وقد اعتذر فى ذلك أنه يقصد الإبانة عن المعانى التى خرجت إليها الألفاظ سوى المعانى الحقيقية التى وضعت لها فى أول الأمر.

وبعد ذلك جاء أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ، صاحب فضل كبير على الناس فى دراسة علوم البلاغة كمادة علمية لها قواعد مقررة ثابتة. وقضايا متميزة بعضها عن بعض أتم تمييز. وله الفضل العظيم فى تحديد الأنواع وضبطها بحيث يرد كل شئ إلى نصابه من دون أن يبقى كثير من فروع هذا العلم مترددة متذبذبة بين الأنواع تارة إلى هذا وتارة إلى ذاك.

ونرى أن كلمتنا هذه ستغضب كثيراً من الناس الذين يعلمون أنه شاق على المتعلمين طرق البلاغة. وقام بتعقيد مسالكها عليهم فقط. ولم يرجع إلى أساليب

من العربية واضحة المأخذ، منيرة المعالم، ومن غير أن يكون له من أسلوبه نفسه ما يرغب الباحثين في أبحاثهم، ويشوق نفوسهم إلى اقتفاء آثاره.

وليس بنا من حاجة إلى أن نذكر مجملاً من كتابه «مفتاح العلوم» الذي جمع فيه خلاصة علم الصرف، وعلم النحو، وعلوم البلاغة والمعاني والبيان، والبديع، وعلم الاستدلال «المنطق»، وعلم العروض والقافية، وذلك لأن تستطيع أن تدرك من النظرة الأولى في القسم الثالث من هذا الكتاب. وهو القسم الذي اختصه بالكلام على البلاغة وعلومها، مقدار ما بذله من الجهد لضبط مسائل هذه العلوم على النحو الذي قررناه لك.

وقد أخلى السكاكي كتابه من العبارة الرنانة وكثرة التمثيل، فجاء كتابه تقريراً للقواعد وتحديداً دقيقاً لمشتبه مسائلها، وتفرقة بين الأمثال والنظائر، وتقريباً بين المتباينات. ولو أنه حاول ذلك في مثل أسلوب عبد القاهر وفصاحة بيانه، وسحر عبارته - ثم أكثر من الأمثلة والشواهد، لكان مرضياً عنه من الناس أجمعين.

ثم جاء من بعد أولئك ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي الشافعي المعروف بابن الأثير الجزري، صاحب كتاب «المثل السائر»، وكتاب «الجامع الكبير»، والذي قام بجهد خصب في علوم البلاغة في مفتتح كتابه «الجامع الكبير»، فإنه يقول فيه - «أما بعد، فلما كان تأليف

الكلام مما لا يوقف على غوره - ولا يعرف كنه أمره، إلا بالإطلاع على علم البيان، الذي هو لهذه الصناعة بمنزلة الميزان، احتجت حين شدوت نبذة من الكلام المنثور، إلى معرفة هذا العلم المذكور، فشرعت عند ذلك في تطلبه، والبحث عن تصانيفه وكتبه - ولمحت في أثناء القرآن الكريم من هذا النحو أشياء ظريفة، ووجدت في مطاويه من هذا النوع نكتاً دقيقة لطيفة، فعرضتها ذلك على الأقسام التي ذكرها هؤلاء العلماء، وشرحوها، والأصناف التي بينوها في تصانيفهم، وأوضحوها، فألفيتهم قد غفلوا عنها، ولم ينبهوا على شئ منها. فكان ذلك باعثاً لي على تصفح آيات القرآن الكريم. والكشف عن سره المكنون، فاستخرجت منه حينئذ ثلاثين ضرباً من علم البيان. لم يأت بها أحد من أولئك العلماء الأعيان. وكان ما ظفرت به أصل هذا الفن وعمدته، وخلاصة هذا العلم وزبدته".(١)

فإنه يعكف أولاً على دراسة كتب السلف من العلماء، ثم يعكف على دراسة الأمثال والشواهد. ومن بين ذلك آيات القرآن الكريم. ثم يقارن بين ما فهمه من هذه الشواهد وبين ما ذكره السابقون. فيبين أنهم لم يستوعبوا الأنواع، ويستدرك عليهم ثلاثين نوعاً أغفلوها. ثم يصنف كتابه هذا في بابين الباب الأول ينقسم إلى قسمين. أحدهما فيما يجب على مؤلف الكلام الابتداء به، ويستوفي ما أراد من ذلك في أربعة فصول، وثانيهما في الكلام على الألفاظ والمعاني وتفصيل

١- مقدمة الجامع الكبير ص٣٣

الكلام المنثور على المنظوم ويبلغ من ذلك ما أراد في ثلاثة فصول. والباب الثاني ينقسم إلى نوعين أيضاً النوع الأول في الفصاحة والبلاغة. والنوع الثاني في ذكر أصناف البيان وأقسامه. ويجعله على بابين. الباب الأول في الصناعة المعنوية، وهي تنقسم عنده إلى تسعة وعشرين نوعاً يذكر منها: الإستعارة، والتشبيه، والإيجاز، والإطناب، والكناية، والتعريض، والتغيير بعد الإبهام، والتقديم والتأخير، والتخلص والإقتضاب. والمبادئ والإفتتاحات، وقوة اللفظ لقوة المعنى، والباب الثاني في الصناعة اللفظية. وهي عنده سبعة أنواع، السجع، والإزدواج، والتجنيس، والترصيع، ولزوم ما لا يلزم، والموازنة، واختلاف صيغ الألفاظ، وتكرير الحروف.

وكتابه «المثل السائر» يجري على النحو الذي لخصنا لك طريقته: فهو يفتتحه بالخطبة التي لا تخرج في المعنى عما قدمناه من خطبة «الجامع الكبير» وهو بعد ذلك يبني الكتاب على مقدمة ومقالتين. فيذكر في المقدمة أصول البيان، ويذكر في المقالتين فروعه، ويخص أولاهما بذكر الصناعة اللفظية، والثانية بذكر الصناعة المعنوية.

وبعد ذلك جاء جلال الدين قاضي القضاة محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن الحسن بن علي بن ابراهيم القزويني الشافعي المولود بسنة ٦٦٦ هجرية والمتوفى بسنة ٧٣٩ هجرية. فقصد إلى الجمع بين طريقتي الإمامين الشيخ عبد القاهر الجرجاني صاحب «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة»، وأبي يعقوب

السكاكى صاحب «مفتاح العلوم» ويضم إلى مباحثهما ما استدركه العلامة ابن الأثير صاحب «الجامع الكبير» و «المثل السائر» من الأنواع على من سبقه من العلماء.

فبدأ عمله هذا بتلخيص القسم الثالث من «مفتاح العلوم» الذى صنفه أبو يعقوب السكاكى. لأنه فيما رأى «أعظم ما صنف فى علم البلاغة من الكتب المشهورة نفعاً، لكونه أحسنها ترتيباً، وأتمها تحريراً وأكثرها للأصول جمعاً (١)».

أراد هو أن يصبح كتابه خيراً من كتاب السكاكى، فجعله مشتملاً على ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد، ولم يأل جهداً فى تحقيقه وتهذيبه. ورتبه ترتيباً أقرب تناولاً من ترتيبه. وأضاف إلى ذلك فوائد عثر فى بعض كتب القوم عليها. وزوائد لم يظفر فى كلام أحد بالتصريح بها ولا الإشارة إليها. ويبدو من ذلك أنه بدا له بعد أن أكمل تصنيف هذا الكتاب أنه قد جاء مختصراً أكثر مما أراد. وأنه لم يحرز فيه ما ينقع الغلة من الأمثلة والشواهد. فأراد أن يبسط عبارته بعض البسط. ويكثر من التمثيل والاستشهاد مع عدم الإخلال بما وضعه عليه من الترتيب والضبط. لأن فى ذلك كان تقريباً للكتاب من كتب الشيخ؛ إذ كان المختصر أقرب إلى تدقيق السكاكى. فصنف لهذا الغرض كتابه «الإيضاح» وهو يقول فى فاتحته -

«أما بعد، فهذا كتاب فى علم البلاغة، وتوابعها ترجمته بالإيضاح. وجعلته على ترتيب اختصارى سميته بتلخيص المفتاح. وبسطت فيه القول ليكون

---

(١) مختصر المعانى ص ٢٣

كالشرح له. فأوضحت مواضعه المشكلة. وفصلت معانيه المجملة. وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه مفتاح العلوم، وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابيه «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما، فاستخرجت زبدة ذلك كله، وهذبتها ورتبتها، حتى استقر كل شيء منها في محله. وأضفت إلى ذلك ما أدى إليه فكري، ولم أجده لغيري، فجاء بحمد الله جامعاً لأشتات هذا العلم».

وقد وقفت بعد الخطيب القزويني جهود العلماء. وثبت العلم في المكان الذي تركه الخطيب فيه، فبعد أن كان كل واحد منهم يأتي مستدركاً على من سبقه، بعد أن يجيد كتبهم بحثاً. بعد هذا كله صارت كتب الناس منذ ذلك الوقت عبارة عن اختصار كتاب مطول أو إطالة كتاب مختصر، ومن هذا النحو جميع شراح كتاب «تلخيص المفتاح»، فليس في واحد من هذه الشروح - على كثرتها واختلافها تطويلاً واختصاراً - زيادة مسألة واحدة في مسائل العلم. وليس في المختصرات التي حاول أصحابها تبسيط كتاب التلخيص وتقريبه إلى أذهان الطلاب مجهود موفق حاول صاحبه أن يجعل به مسألتين أو أكثر مسألة واحدة. وإنما انحصر جهد الباحثين، وقوة المجتهدين في اختصار العبارة أو إطالتها. وفي الاعتراض على عبارة الخطيب أو الدفاع عنها، على طريقة الفلاسفة وأهل الجدل. لا على طريقة الأدباء وعلماء النقد اللغوي.

ومن شراح هذا الكتاب الشيخ العلامة سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، الشافعي، المولود في عام ٧١٢ والمتوفى في عام ٧٩١ من الهجرة. وهو من العلماء الذين غلبت عليهم قواعد الفلسفة والجدل، فصنف في أكثر العلوم على طريقة واحدة؛ صنف في النحو، وفي الصرف، وفي علوم البلاغة، وفي أصول الفقه، وفي علم الكلام، وفي المنطق، وفي التفسير. وكان عالماً من فحول العلماء، له باع طويل في التحقيق الدقيق وفي الاعتراض على العبارة والجواب عنها. ولكنه كان صاحب لكنة في لسانه - وكانت هذه اللكنة سبباً في تفوق تلميذه السيد الشريف الجرجاني علي بن محمد بن علي الحنفي المتوفى في عام ٨١٦ من الهجرة عليه -

تأثير "أسرار البلاغة" على الجيل الجديد، وآراؤهم عنه:

قد عنى كثير من الباحثين في عصرنا الحديث بدراسة عبد القاهر وكتابيه - الدلائل، والأسرار - فإن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده هو أول من تنبه إليهما. فقد قرأهما دروساً في الأزهر. وقام بالتعليق عليهما. واختارهما للدراسة من الكتب الأساسية التي تجعل أساسها متناً موجزاً. تضع عليه شرحاً، ثم تضع على الشرح شرحاً تدعوه حاشية، وعلى الحاشية تعليقات تدعوها تقريراً. وكل هذه المؤلفات بين مناقشات لفظية وجدل عقيم لا فائدة فيه. وبين تقسيمات عقلية منطقية لا صلة لها بواقع الكلام البليغ.

فاعتبر الأستاذ الإمام هذين الكتابين أحق بأن يدرسا. لأنهما مع شمولهما على التحديد والإلمام يبنيان دراستهما على واقع النصوص الأدبية. ولا يمتان بصلة ما إلى الجدل الذي لا نتيجة له، بيد أنهما يشملان على سهولة الأسلوب، ويمتليان بالنصوص الأدبية الممتازة، مما تجعل القارئ أو السامع يقرب إلى تذوق البلاغة، وإلى البصر بدقائق فنونها.

ولما أدخلا "الدلائل والأسرار" في المنهج الدراسي بالأزهر فطبعا مرة أخرى بعد ما تم التصحيح فيهما بقدر الإمكان.

ففي العصر الحديث قام الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين بدراسة عبد القاهر الذي يعتبر أنه قد اكتمل على أيدي عبد القاهر التلاؤم والتوفيق بين اللغتين، العربي، واليوناني. لأنه ألف كتابين، أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، وهما يعتبران

من أنفس ما كتب في البيان العربي، وحينما نقرأ كتاب «الأسرار» نتأكد من أن المؤلف قد قرأ الفصل الذي عقده ابن سينا للعبارة، وأنه أتقن التفكير فيه كثيراً، وحاول أن يدرسه دراسة نقد وتمحيص. قد سبق أن عرّب ابن سينا كتاب الخطابة لأرسطو، وأتى به في متناول الفكر العربي.

قام الدكتور بتوضيح جهود عبد القاهر في كتاب «أسرار البلاغة» داخل دائرة أرسطو، فيعتبر أن عبد القاهر قام بدراسة الحقيقة والمجاز، فاتضح له أن ما تصور العلماء القدماء في هذا المجال هو مضطرب غير مستقيم. فتصدى هو لهذه المهمة. فقام بإيضاح المبهمات وجلاء الغوامض. فوزع المجاز بين قسمين «مجاز لغوي»، و«مجاز عقلي»، ثم قسم المجاز اللغوي إلى نوعين، أحدهما قائم على التشبيه والثاني، فهو عبارة عن كل لفظ مستخدم مكان لفظ آخر لرابطة تربطهما.

وقد عرفنا مجاز أرسطو الذي سمح فيه إطلاق إسم الجنس على النوع، واسم النوع على الجنس، فمجاز أرسطو هذا هو الذي سماه عبد القاهر في كتابه «أسرار البلاغة» مجازاً مرسلاً. وأما المجاز الذي يقوم على التشبيه، وهو الذي سماه أرسطو «صورة» فيسميه عبد القاهر إستعارة. ولكن أمعن الدراسة في المجاز والتشبيه لتقريره، ولكنه لم يخرج من الحدود التي رسمها أرسطو. أما المجاز العقلي فهو من ابتكار عبد القاهر.

قد تأثر أحمد أحمد بدوى بعبد القاهر وجهوده البلاغية، وأنه قد أظهر خلافه مع وجهة نظر الدكتور طه حسين فى أن عبد القاهر يبدأ بحثه فى دلائل الإعجاز بنقد نظريتين قديمتين.

إحداهما. تجعل جمال الكلام فى اللفظ، والأخرى تجعله فى المعنى، ثم ينتهى به البحث إلى أن جمال الكلام ليس يعود إلى اللفظ ولا إلى المعنى، وإنما هو فى نظم الكلام أى فى الأسلوب. ويقول بدوى لم أفهم وجهة نظر الأستاذ الجليل، لأن عبد القاهر تمام بتأليف كتابه من أوله إلى آخره لإثبات أن البلاغة إنما تعود إلى المعنى، وأن الكلام يعتبر بليغاً إذا كان اللفظ فيه تابعاً لمعناه، وليس معنى ذلك أنه لا يعنى بالصياغة. ولا يلقى إليها بالاً. بل إنه يعنى بها عناية كبرى، حتى تصبح الصياغة بالغة إلى درجة الإعجاز، وذلك إنما يكون إذا كانت الصياغة تابعة للمعنى.

ولا يرى أحمد أحمد بدوى رأى الأستاذ الدكتور فى أن كتاب «دلائل الإعجاز» يحاول فيه عبد القاهر أن يثبت إعجاز القرآن، فذلك أمر قد أثبته فى رسالته الشافية. ولكنه فى كتاب الدلائل يحاول أن يثبت وجه إعجاز القرآن

بيد أن الدكتور طه حسين يقرر أنه إذا كان الخاطر هو واضع أساس البيان العربى حقاً. فعبد القاهر هو الذى رفع قواعده وأحكم بناءه[1]

١- تمهيد فى البيان العربى ص٣

يقول الأستاذ أمين الخولي عن عبد القاهر " هو متكلم فلسفي تارة، وهو أديب صانع الكلام وناقده تارة أخرى، هو متكلم، أديب بليغ كلامي الدرس في كتابه "دلائل الإعجاز" يعنى أولاً وأخيراً بقضية الإعجاز فقط. وينصرف إليها انصرافاً كاملاً. فيجادل عنها جدلاً منطقياً بارز النزعة في أسلوبه، من مثل قوله " إن قلتم قلنا"، و"كيف لا يكون الأمر كذلك"، و"ما هو إلا كذا وكذا"، ويقول في موضع آخر " وعبد القاهر بليغ أديب في كتابه الآخر "أسرار البلاغة" لا يتحدث في قضية الإعجاز بكثير ولا قليل. بل لا يستشهد بالقرآن على نسبة كافية، وكأنه يتحرى ترك ذلك، لا نشعر به من قلة الشواهد القرآنية في كتابه هذا قلة ظاهرة. كما يبدو فيه أسلوبه خالياً من الأسلوب المنطقي الإستدلالي، ميالاً إلى طول النفس، وبسطة العبارة، والاعتماد على الحاسة الفنية وتحكيم الذوق الفني "(١)

بيد أن أحمد أحمد بدوي لا يوافق الأستاذ الخولي في أن عبد القاهر قد عنى في كتابه "دلائل الإعجاز"، أولاً وأخيراً بقضية الإعجاز فقط. يجادل عنها جدلاً منطقياً، لأنه قرر أول ما قرر أن إعجاز القرآن يعود إلى بلاغته في نظمه. فانصرف في كتابه إلى تحقيق معنى البلاغة، وكتابه من أوله إلى آخره يدور حول التعريف بالبلاغة، وإلى أي شئ تعود البلاغة.

ولم يقم عبد القاهر في كتابه بجدل منطقي، وإنما كان جدلاً يعتمد على الذوق. لأنه

١- البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ص٢٣

يؤمن بأن الذوق هو الحكم في البلاغة - وأنه يركز عليه في إدراك أسرار الجمال في الكلام.

وقد بيّن عبد القاهر إعتماده على الذوق في أكثر من موضع في كتاب "دلائل الإعجاز"

وينقل بدوى عبارة عبد القاهر رداً على من يخالفه في رأيه هذا "ليس الداء فيه بالهين،

لأن المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها، وتصور لهم شأنها، أمور خفية، ومعان

روحانية، أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها، وتحدث له علماً بها. حتى يكون هو

مهيئاً لإدراكها. وتكون فيه طبيعة قابلة لها. ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما

في نفسه إحساساً بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيه المزية

على الجملة. وممن إذا تصفح الكلام، وتدبر الشعر فرق بين موقع شئ منها وشئ "(١)

وأما مناقشته في كتاب "الدلائل" فلأن فكرته التي ملكت عليه قلبه

وهي فكرة البلاغة، وهدلولها تدور حولها شبهات كثيرة رأى من واجبه إزالتها

أن ينفرها بكل ما أوتي من قوة، على أن أسرار البلاغة لم يخل من المناقشات.

أما الأستاذ إبراهيم مصطفى يرى أن عبد القاهر رسم طريقاً جديداً

للبحث النحوي تجاوز أواخر الكلم وعلامات الإعراب، وبيّن أن للكلام "نظماً"

وأن العناية بهذا النظم والعمل على قوانينه هي السبيل إلى الإبانة والإفهام،

وأنه إذا عدل بالكلام عن سنن هذا النظم لم يكن مفهماً معناه، ولا دالاً على

ما يراد منه.

١- دلائل الإعجاز ص٤١٩

لكن كثيراً من النحاة لم يتأثروا بأفكار عبد القاهر. ولم يزيدوا في أبحاثهم النحوية حرفاً. ولا اهتدوا منه إلى شئ، وآخرون منهم أخذوا الأمثلة التي ضربها عبد القاهر بياناً لرأيه، وتأييداً لمذهبه، وجعلوها أصول علم من علوم البلاغة، وسموه «علم المعاني» وفصلوه عن النحو فصلاً أزهق روح الفكرة، وذهب بنورها. ويرى الأستاذ إبراهيم إن الذي شغل الناس عن فهم «نظم» عبد القاهر أمران:-

أحدهما: الحالات العلمية في القرن الخامس أي عصر عبد القاهر. إذ كانت العقول هامدة، ومتقيدة بسلاسل من التقليد حرمت عليها أن تقبل أي ابتداع أو تجديد.

وثانيهما: أمر خاص يعود إلى طبيعة المذهب ومنهجه، وأن أساسه الذوق وتنبه الحس اللغوي لزنة الأساليب، وإدراك خصائصها، وقد كانت العجمة إذ ذاك غالبة بغلبة الأعاجم. وكان العلماء واقفين من علم العربية عند ظاهر لفظها، لا يبلغ بهم الحس اللغوي أن يذوقوا ما ذاق عبد القاهر، ولا أن يدركوا ما أدرك.(١)

هذا رأى الأستاذ إبراهيم مصطفى يؤمن بأن إحياء النحو يكون بإبعاده عن هذا الجفاف الذي يعيش فيه. وذلك لمزجه بهذه الجوانب الفنية التي ذكرها عبد القاهر.

هكذا قام الأستاذ محمد خلف الله بالدراسة للمنزع النفسي في بحث «الأسرار» وابتدأه بأن كتابي «الأسرار، والدلائل» يقومان على نظريتين متكاملتين يقررهما المؤلف ويشرحهما ويطبقهما.

١- إحياء النحو ص ٢٦

وأوضح الأستاذ غاية المؤلف في كل من الكتابين، فقد بيّن مؤلفهما أن علم البيان قد أصاب من الضيم وعدم الاعتناء ما لم يلقه علم آخر، بيد أن هناك من الدقائق والأسرار التي تعرض لنظم الكلام ما يجهله الدارسون، ولهذا ندب عبد القاهر نفسه لـ"ليعالج الأدب على أساس طريقة واضحة، يتعاون فيها الاستقراء، والذوق، والمعرفة، ويرجع فيها إلى الأسس العامة التي تتفرع عنها ظواهر الأدب، وتنبني عليها نواحي جماله وتأثيره.

فعلى الباحث إذاً أن يتنبه لناحيتين في دراسة الفن الأدبي.

أولاهما. ناحية البناء والنظم والتركيب.

وثانيتهما. ناحية الصياغة والتصوير والجمال.

وهاتان اللتان انتدب لهما عبد القاهر في كتابيه - على ما يظهر - يعالج الأولى في الدلائل. والثانية في الأسرار."(1)

ويقول الأستاذ إن كتاب "الدلائل"، كتاب عام في النظرية الأدبية واتصالها بإعجاز القرآن. يسلك فيه عبد القاهر أهم النواحي التي عرفت بعد باسم البلاغة.

ولكن "الأسرار" بحث خاص يشتمل على مواضيع الاستعارة، والتشبيه، والتمثيل، فيعالجها على حدة. ومن ثم يتضح أن هذه المسائل البيانية والقضايا الكلامية ذات صفة خاصة في الخلق الأدبي. وللصور الفنية والأشكال الأدبية التي تندرج تحتها تأثير خاص في النفس. ويمضي الأستاذ قائلاً: إن عبد القاهر قد حاول

١- عبد القاهر وجهوده البلاغية ص ٤٠٠

أن يحل فكرة النظم في الإعتبار الأدبي. غير أن جمال الصور الفنية في هذه الأبواب لا يتكشف على أساس فكرة النظم وحدها. فقد دعت الحاجة إلى أن تبحث فكرة النظم بحثاً خاصاً يؤكد فيه الجانب النفساني من جمالها، وهذا هو موضوع «أسرار البلاغة».

ومضى الأستاذ يحلل كتاب «أسرار البلاغة»، واقفاً عند النواحي النفسية من هذا الكتاب. ثم يخرج الفكرة الجذرية التي تبدو في كتاب «أسرار البلاغة» والتي يصح أن نعتبرها نظريته في الأدب، وهي «مقياس الجودة الأدبية تأثير الصور البيانية في نفس متذوقها». (١)

وقد كتب الأستاذ محمد عبد المنعم الخفاجي كتاباً باسم «عبد القاهر والبلاغة العربية» وبدأه بنقل ترجمته من فوات الوفيات وبغية الوعاة. وعقد المؤلف فصلاً لعبد القاهر والكتّاب المحدثين، وقام بتلخيص رأى الدكتور مندور الذي رأى أن جماع آراء عبد القاهر ثلاثة.

إحداها – إنكاره لما رآه الجاحظ من أهمية الألفاظ، ثم ثورته على مذهب العسكري الذي يرى جودة الكلام تعود إلى محسنات لفظية تقف عند الشكل.

ونحن لا نوافق الباحث على ذلك. لأن عبد القاهر لم ينكر على الجاحظ فكرته. وإنما احتج بها، ووافقه عليها. ورأى الناس لم يفهموها على وجهها الصحيح. أما هو فهو موافق للجاحظ في فكرته. لأن الجاحظ لم يدع الناس إلى نصرة اللفظ على المعنى. ولم يدع مطلقاً إلى

١- عبد القاهر وجهوده البلاغية ص٢٦

العبارة المتكلفة ذات الرنين الموسيقى اللفظى إذا خلت عن المعنى. وقد أوضحنا في الباب الأول من هذه المقالة أن عبد القاهر يوافق الجاحظ تمام الموافقة في الصياغة، وجودة التعبير، وإنما يزيد على الجاحظ في الإبانة عن دواعي جمال هذه الصياغة، وهو أن اللفظ يتبع المعنى ويقوم بتصويره.

وأما ما يقال عن عبد القاهر في مخالفة أبي الهلال العسكري، فلم يكن العسكري يقول بالتكلف في الإتيان بالمحسنات اللفظية. وما أتى به عبد القاهر هو إيضاح أن هذه التحسينات البديعة كالجناس والسجع مما يبدو أن جمالها لفظي، وإنما جمالها في معناها. وأن التكلف يكون حيث يكون المعنى تابعاً للفظ.

ويرى الدكتور مندور أن عبد القاهر يعتبر أن الجودة ترجع إلى دقة الأداء في كتابه «دلائل الإعجاز»، وفي جانب آخر نرى نظرية أخرى في أسرار البلاغة في الموازنة بين طرق الأداء الواقعية «الحقيقية» منها والمجازية، فنظرية «الدلائل» تجري مع نظم الكلام والأسلوب، على أن المعنى الواحد لا يمكن أن يعبر عنه إلا بعبارة واحدة، ونظرية «الأسرار» تقوم على افتراض وجود طريقتين للعبارة: طريق الحقيقة، وطريق المجاز. بيد أن أحمد بدوي لا يوافق الدكتور مندور في ذلك، فليس افتراض وجود طريقتين للعبارة نظرية عبد القاهر، لأنه معنى جميع العلماء من قبله على هذا الافتراض. فإن عبد القاهر يقرر في كتابيه «الدلائل» و«الأسرار» أن أصل المعنى يمكن

أن يعبّر عنه بطرق مختلفة ، وأن لكل عبارة من ذلك معناها الذى تفترق به عن العبارة الأخرى ، لأن العبارتين لا يمكن أن تؤديا معنى واحداً إلا إذا وافقنا من جميع الجوانب.

وقد أوضح عبد القاهر فكرة التفسير والمفسر فى كتابه «الدلائل» ، فليس إذاً لعبد القاهر نظريتان ، وإنما هى نظرية واحدة ، وهى أن العبارات تختلف فى تأدية أصل المعنى ، ثم تفضل إحداهما الأخرى حتى تصل واحدة إلى درجة الإعجاز.

وإذا كان عبد القاهر يعتمد على الذوق فإنه يحاول أن يعتمد على الذوق فى تفهم أسرار حكمه ، ليصل بذلك إلى أن من الممكن وضع القواعد العامة لعلم البلاغة . وهناك كثير من مسائل البلاغة كمسائل التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والتعريف والتنكير ما يعتمد فيه على العقل والمعرفة . فمن المستطاع لصاحب الذوق أن يقوم بحكم مستقيم على النصوص الأدبية ، وبحكم قائم على التجربة.

وإذا كان الجمال موضوعياً كما يؤمن به عبد القاهر فمن الممكن إذاً أن نصل إلى قواعد عامة ، ونظريات تكون أسساً للحكم ، وهو ما حاول عبد القاهر أن يفعله . فإنه وضع القواعد التى يحتكم إليها الناقدون كآرائه فى الاستعارة المفيدة ، وغير المفيدة ، ورأيه فى تفاوت الاستعارة فى مدارج القوة . وقد بينّا غرام عبد القاهر بالتحديد والتقسيم بعد الاستقراء والدراسة . وكل ذلك أصول موضوعة لاحتكام الناقدين إليها عند الحكم على النصوص الأدبية.

ودرس مؤلف الكتاب «عبد القاهر والبلاغة العربية» عبد المنعم الخفاجي دراسة موجزة لبعض الأبواب التي تعرض لها عبد القاهر. فدرس باب المجاز بفرعيه، المرسل والعقلي، والتشبيه والاستعارة، كما درس النظم، ومذهب عبد القاهر في تقديم المسند إليه.

وقد أوضح المؤلف في هذا الكتاب أن أسلوب عبد القاهر في كتابيه «الدلائل» و«الأسرار» أسلوب أدبي خالص. يقدم فيه الأساليب العربية يحللها ويدرسها دراسة فهم وتذوق ونقد. ويستخرج منها ما يشاء من القواعد والأصول [1].

ويدّعي مؤلف الكتاب أن عبد القاهر في ذلك يسير وراء الجاحظ إمام اللغة العربية وشيخ البيان العربي. هنا يقول أحمد أحمد بدوي، لست أدري كيف يسير عبد القاهر وراء الجاحظ وكتابا عبد القاهر لا يرتبطان برابطة ما إلى الجاحظ ولا إلى منهجه، فكتاب «الدلائل» يدور كله حول نظرية واحدة يعرضها ويشرحها ويبرهن عليها، ويرد الشبهات عنها، وكتاب «الأسرار» مبوب أبواباً دقيقة يناقش تحت كل باب مسائله المختلفة. لا يتجاوزها، ولا يستطرد إلا نادراً جداً. فأين ذلك من أسلوب الإستطراد والحشو الذي لا تحليل فيه إلا نادراً، وهذا هو منهج الجاحظ.

وألف الدكتور درويش الجندي بحثاً عن «نظرية عبد القاهر في النظم»، وقدم له بدراسة لبيئة عبد القاهر، وعصره، وثقافته. ثم قام بالتأريخ لقضية الإعجاز منذ العصر الإسلامي العربي المحض إلى أيام عبد القاهر. ثم أوضح الدكتور نظرية عبد القاهر في النظم،

١- عبد القاهر والبلاغة العربية ص١٣٩

وأن لها غايتين: إحداهما بيان أن جوهر الكلام هو المعنى القائم في النفس، والثانية ربط البلاغة بالإعجاز.

ويمضي في إيضاح أسس النظرية ومعالمها، ويقوم بدراسة خطوات عبد القاهر في نظريته، فيجلوها خطوة خطوة. ويعرض شبهات اللفظيين، ويرد عليها. والجديد في هذا البحث أنه استمد بالبحوث الكلامية في إيضاح نظرية عبد القاهر في النظم، وربط هذه النظرية بتلك البحوث ربطاً وثيقاً متيناً (١).

ولقد كان عبد القاهر يتكلم عن نظم الكلام الذي يتصف بالبلاغة، سواءً في ذلك كلام الله وكلام البشر، وكان يتخذ نماذجه التي يعرضها من القرآن ومأثور كلام العرب، مما يدل على أنه كان ينظر إلى البلاغة نظرة شاملة.

ولقد قام الدكتور بدوي طبانة بتأليف كتاب باسم «البيان العربي»، وفيه فصل عن «بلاغة عبد القاهر في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة»، وقد شرعه بالموازنة بين اتجاهي ابن سنان، وعبد القاهر، ثم أوضح مدى فهم عبد القاهر لكلمات «البلاغة، والفصاحة، والبيان» لأنها متقاربة في نظره. ويرد بذلك على ناشر كتابي عبد القاهر الذي وضع تحت عنوان كتاب «دلائل الإعجاز» كلمة في «علم المعاني»، وتحت عنوان «أسرار البلاغة» كلمة في «علم البيان».

وبعد ذلك أوضح فكرة النظم لدى عبد القاهر. ورأى أن الأفكار التي دارت

في المناظرة بين السيرافي، وأبي بشر متى بن يونس في مجلس الوزير ابن الفرات.

ص التي تبناها عبد القاهر، وجعل منزع كتابه «دلائل الإعجاز»

وكذلك عقد فصلاً على حدة للفظ والمعنى عند عبد القاهر. ثم يجول جولة في بلاغة

عبد القاهر من بيان مزايا التقديم والتأخير، والذكر والحذف، ويتكلم عن فضله

في بحث الفصل والوصل، ويختم بحثه بأن موضع عبد القاهر يجب أن يكون بين

نقاد العرب، وأن يكون في طليعة نقاد الأدب.

خلاصة القول:-

قد وزعت هذه المقالة في ثلاثة أبواب، وكل باب يحتوي على ثلاثة فصول. فالباب الأول موزع بين ثلاثة فصول، الأول نشأة عبد القاهر وثقافته، ذكرت فيه نشأة عبد القاهر، وخلفية أسرته بيد أني لم أجد فيها كثيراً، وثقافته، وأساتذته الذين تلمذ عليهم بالواسطة أو بلا واسطة، وعن تلامذته الذين تخرجوا به، وبعض جوانب حياته، بيد أنه كان مقتراً عليه في الرزق ولم يدرِ مورد رزقه، وكان غيوراً يبغض النفاق والملق عند الملوك والرؤساء، ولذلك كان يسوط على العلماء الذين كانوا يباشرون أعمال التملق والنفاق عند السلاطين.

إنه يقول:-

هذا زمان ليس فيه سوى النذالة والجهالة - لم يرق فيه صاعد إلا وسلمه النذالة -

وأما خصائل وسمات عبد القاهر التي ذكرها المؤرخون، واحتفظ بها لنا أصحاب السير والتراجم وهي أنه كان متديناً كبيراً وورعاً تقياً، وكان يتكلم الأشعرية وكان يحب الذين يميزون بين الجميل والقبيح، ويحترمون الصديق ويعرفون قدره، وقد أعجب المؤرخون بعلمه وخلقه، ولم تحل المعاصرة بين صاحب دمية القصر وبين شديد الإعجاب بعبد القاهر معاصره. فإنه يقول. اتفقت على إمامته الألسنة وتجملت بمكانه وزمانه الأمكنة والأزمنة، مع ذلك لم يذكر المؤرخون شيئاً عن حياته الخاصة، أكانت له صاحبة وكان له ولد؟ أم عاش للعلم وأخلص

نفسه للدرس، والتحصيل، والتعليم، والإنتاج. وفي آخر الفصل سردت أعماله العملاقة من بين كتب، ورسائل، وشروح.

وبحثت في الفصل الثاني عن علم البلاغة وأصحابه من قبل الإسلام إلى عهد عبد القاهر. وهنا ذكرت أن كانت نشأة البلاغة بسيطة ساذجة، وتتمثل بذور البحث البلاغي النقدي في الأحكام التي كان الشعراء يصدرونها. كما تذكر قصة امرئ القيس وعلقمة الفحل، وقصة النابغة الذبياني الذي كانت تضرب له قبة في سوق عكاظ، وقصة الخنساء، وحسان بن ثابت، وأسواق العرب التي كان الناس يجتمعون فيها. فيلقى الشعراء شعرهم، والخطباء خطبهم وينقد بعضهم بعضاً. وكانت هذه القصص والوقائع بداية حسنة للنقد والبلاغة، وبذوراً أثمرت أصولاً، وقواعد بعد قرن أو قرنين، ونبغ فحول من البلغاء والأدباء والناقدين.

والفصل الثالث بعنوان «عبد القاهر الجرجاني والبلاغة العربية وقواعدها» قد بحثت فيه عن أهمية البلاغة العربية لدى عبد القاهر، وكيف كان هو يراها والناس في عهده. فيصف عبد القاهر مكانة البيان، وما مني به من الاعتقاد باطل وتصور فاسد قائلاً في دلائل الإعجاز «إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً وأبسق فرعاً، وأحلى جنى، وأعذب ورداً، وأكرم نتاجاً، وأنور سراجاً

من علم البيان الذي لولاه لم تر لساناً يحوك الوشي، ويصوغ الحلي، ويلفظ الدر، وينفث السحر ويقري الشهد، ويريك بدائع من الزهر، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر. إلى فوائد لا يدركها الإحصاء، ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء إلا أنك لن ترى على ذلك نوعاً من العلم قد لقي من الضيم ما لقيه، ومني من الحيف بما مني به. ودخل على الناس من الغلط في معناه ما دخل عليهم فيه. فقد سبقت إلى نفوسهم اعتقادات فاسدة. وظنون رديئة. وركبهم فيه جهل عظيم، وخطأ فاحش. ترى كثيراً منهم لا يرى له معنى أكثر مما يرى للإشارة بالرأس والعين، وما تجده للخط والعقد. يسمع الفصاحة، والبلاغة والبراعة فلا يعرف لها معنى سوى الإطناب في القول، وأن يكون المتكلم في ذلك جهير الصوت، جاري اللسان، لا تعترضه لكنة ولا تقف به حبسة، وأن يستعمل اللفظ الغريب، والكلمة الوحشية. فإن استظهر للأمر. وبالغ في النظر فألا يلحن فيرفع في موضع النصب، أو يخطئ فيجيء باللفظة على غير ما هي عليه في الوضع اللغوي، وعلى خلاف ما ثبتت به الرواية عن العرب.

جملة الأمر: إنه لا يرى النقص يدخل على صاحبه في ذلك إلا من جهة نقصه في علم اللغة.

والباب الثاني جعلت عنوانه «دور عبد القاهر في تطوير البلاغة العربية» ويحتوي هذا الباب أيضاً على ثلاثة فصول. الأول: البلاغة بين اللفظ والمعنى، وقد ذكرت فيه مدرسة اللفظ التي تمذهب بأن البلاغة راجعة إلى اللفظ، وفيرط أبو هلال العسكري.

الذى يقول فى كتاب الصناعتين: «وليس الشأن فى إيراد المعانى، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى، والقروى والبدوى، وإنما الشأن فى جودة اللفظ وصفائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك، والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف. وليس من المعنى إلا أن يكون صواباً» حتى ابن خلدون سار فى هذا الإتجاه فقد كان يرى أن الأصل فى صناعة النظم والنثر إنما هو اللفظ، والمعانى تابعة للفظ. «لأن المعانى موجودة عند كل واحد، وفى طوق كل فكر منها ما يشاء ويرضى، فلا تحتاج إلى صناعة، ويورد تشبيهاً على ذلك ماء البحر. فقد يغترف بآنية الذهب، والفضة والصدف، والزجاج والخزف، بينما الماء واحد فى نفسه، وإنما الإختلاف قائم بين الأوانى. وكان أحد حسن الزيات من المعاصرين رافع هذا اللواء. ثم ذكرت مدرسة المعنى فى نفس الفصل التى تتمذهب بأن البلاغة راجعة إلى المعنى. ومن بينهم ابن جنى مصنف «الخصائص» والشريف الرضى مؤلف «تلخيص البيان فى مجازات القرآن» ولعل ما جاء به ابن جنى هو أوضح تعبير عن هذه النظرية. فلقد أفرد باباً مستقلاً لهذا الموضوع وجعل عنوانه «باب فى الرد من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعنى».

قال ابن جنى أن العرب إذا اعتنت بألفاظها، فانما هى تخدم المعانى التى تحملها تلك الألفاظ، والمعانى عندها أكرم قدراً، وأرفع شأناً، وأعلى مكاناً من

الألفاظ، والشأن - كل الشأن - للمعاني -

ثم بحثت عن الفصل الثاني من الباب الثاني، وجعلت عنوانه "علم المعاني لدى عبد القاهر" وأول مرة سمّى عبد القاهر علم المعاني بالنظم في تاريخ البلاغة العربية. ونجده في أماكن متعددة من الدلائل يبدئ ويعيد في إبطال أن يكون مرجع الفصاحة إلى اللفظ أو المعنى، وإنما مرجعها إلى النظم حيث يقول في الدلائل ص٦٣ "إعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رُسمت لك فلا تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، زيد ينطلق، ينطلق زيد، زيد المنطلق، والمنطلق زيد، زيد هو المنطلق، زيد هو منطلق، وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك - إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج. وأنا خارج إن خرجت. وأنا إن خرجت خارج. وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك، جاءني زيد مسرعاً. جاءني يسرع، هكذا في جميع الصيغ المستخدمة للحال، فإن كانت هذه الكلمات موضوعة في مواطنها تكون العبارة أنيقة وإلا فنابية مستكرهة. لذلك يقول عبد القاهر، أن الفصاحة في تلك الهيئة الفكرية التي تصنع تركيباً من عدة ألفاظ.

وخصصت الفصل الثالث من الباب الثاني بمباحث البيان. وجعلت عنوانه،

"علم البيان لدى عبد القاهر" . وذكرت في هذا الفصل السجع، والجناس، والاستعارة، والمجاز، والحقيقة. وإن عبد القاهر يقسم الاستعارة في قسمين: ١) مفيدة ٢) غير مفيدة. ويقوم ببحث طويل حول الاستعارة وأقسامها، ويذكر التشبيه والتمثيل على حدة، ويأتي لكل واحد منها بأمثلة. ويبرهن عليها. وقد بحث عبد القاهر في هذا الفصل عن السرقات ما بين عقلية وأخرى تخييلية. ويأتي عبد القاهر بالأمثلة ويبرهن على كل واحد منها.

أما الباب الثالث فهو أيضا موزع في ثلاثة فصول، الأول وجعلت عنوانه "الموازنة بين أسرار البلاغة والأعمال البلاغية المعاصرة الأخرى"، وبحثت فيه عن أهمية هذا الكتاب ومكانتها في البلاغة العربية، ووازنت بينه وبين الكتب الأخرى المتواجدة في نفس المجال كمثل "كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، وكتاب العمدة" لابن رشيق القيرواني.

وبعد ذلك أتيت الفصل الثاني من هذا الباب، وجعلت عنوانه "البلاغة بعد عبد القاهر"، وتناولت فيه الإمام جار الله الزمخشري، وكتابه أساس البلاغة، وتفسيره الكشاف، وبينت أهمية تفسيره في البلاغة، وعلوم اللغة. ثم تناولت السكاكي. وذكرت كتابه "مفتاح العلوم"، وما تعلق به. ثم تناولت ابن الأثير الجزري وكتابيه "المثل السائر" و"الجامع الكبير"، وذكرت باختصار أهمية

هذين الكتابين في علوم البلاغة . ثم تناولت جلال الدين القزويني الذي حاول التوفيق بين أسلوب عبد القاهر والسكاكي ، وصنف لهذا الغرض « الإيضاح » ثم أتيت الفصل الثالث من هذا الباب ، وجعلت عنوانه « تأثير أسرار البلاغة على النشء الجديد وآراؤهم عنه » أي كيف يرى الجيل الجديد إلى هذا الكتاب . وإلى أين ينفعهم ، ويستفيدون منه ، وذكرت فيه عديداً من الباحثين من العصر الحديث ، ونقلت آراءهم عن عبد القاهر ، وأعماله البلاغية . بيد أني وجدت الجميع يتفقون على أن عبد القاهر الجرجاني من طليعة نقاد الأدب .

المصادر والمراجع

«ألف»

١- إنباه الرواة على أنباه النحاة -

الوزير جمال الدين القفطي ، مؤسسة الكتب الثقافية بسنة ١٩٨٦م

٢- أسرار البلاغة -

عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق هـ ريتر ، استانبول سنة ١٩٥٤م

٣- الأغاني -

أبو الفرج الأصفهاني ، دار الفكر للجميع بيروت

٤- إحياء النحو -

ابراهيم مصطفى ، دار الفكر العربي ، مصر -

«ب»

٥- البلاغة العربية في ثوبها الجديد -

الدكتور بكري شيخ أحمد ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٤م

٦- البلاغة تطور وتاريخ -

الدكتور شوقي ضيف . دار المعارف ، مصر

٧- البيان العربي -

الدكتور بدوي طبانه ، دار الثقافة ، مصر

٨- البلاغة العربية، وأثر الفلسفة فيها -

أمين الخولي، القاهرة - سنة ١٩٦١ م

٩- البلاغة الإصطلاحية -

عبد العزيز تلقيلة - دار الفكر العربي، سنة ١٩٨٧ م

١٠- البلاغة العربية بين القيمة والمعيارية -

الدكتور سعد أبو رضا - دار الكتب المصرية - مصر

"ت"

١١- تمهيد في البيان العربي.

الدكتور طه حسين - دار الثقافة - مصر،

"د"

١٢- دراسات بلاغية نقدية -

الدكتور أحمد مطلوب - دار الرشيد، القاهرة

١٣- دمية القصر وعصرة أهل العصر -

أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي، تحقيق، الدكتور سامي مكي العاني بغداد سنة ١٩٧١،

١٤- دلائل الإعجاز -

عبد القاهر الجرجاني. طبعة السيد محمد رشيد رضا عن دار المعرفة بيروت، سنة ١٩٧٨م

١٥- دفاع عن البلاغة :-

أحمد حسن الزيات - مجمع اللغة العربية - مصر ،

١٦- دراسات في النقد العربي -

حسن جاد حسن ، دار الكتب المصرية - مصر -

« س »

١٧- سر الفصاحة .

أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي ، القاهرة سنة ١٩٦٩ م

« ع »

١٨- عبد القاهر وجهوده البلاغية -

الدكتور أحمد أحمد بدوي . القاهرة -

١٩- عبد القاهر والبلاغة العربية -

الدكتور عبد المنعم الخفاجي . دار غريب للطباعة بالقاهرة سنة ١٩٨٠

٢٠- العمدة -

ابن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٥٥ .

٢١- عن اللغة ، والأدب ، والنقد -

الدكتور محمد أحمد الغرب ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٨٠

٢٢- علم البيان، دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية -

الدكتور بدوي طبانه - دار الثقافة، بيروت، لبنان، سنة ١٩٨٠م-

٢٣- علم المعاني -

الدكتور درويش الجندي، القاهرة، سنة ١٩٦٢ م

٢٤- علوم البلاغة -

أحمد مصطفى المراغي، طبعة دار الباز للنشر والتوزيع بمكة المكرمة سنة ١٩٨٢م

«ك»

٢٥- كتاب الصناعتين -

أبو هلال العسكري، تحقيق علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل ابراهيم الطبعة الأولى ١٩٥٢م

٢٦- الكشاف -

جار الله محمود بن عمر الزمخشري، يولاق سنة ١٢١٨ هجرية

«ف»

٢٧- فنون غنية -

أحمد مطلوب - الكويت - سنة ١٩٧٥م

«م»

٢٨- مختصر المعاني -

سعد الدين التفتازاني . المطبعة : أ ميرقم سنة ١٤٠٩ هـ

٢٩- مقدمة بن خلدون -

ابن خلدون . دار الكتاب اللبناني - بيروت ، لبنان .

٣٠- مع البلاغة العربية في تاريخها -

الدكتور محمد علي سلطاني . الطبعة الأولى ، دمشق سنة ١٩٧٩ م

٣١- مناهج البحث البلاغي في الدراسات العربية -

الدكتور عبد السلام عبد الحفيظ ، دار الفكر العربي ، مصر ،

"ن"

٣٢- النقد المنهجي -

الدكتور محمد مندور - دار المعارف . مصر

٣٣- نحو بلاغة عربية جديدة .

الدكتور عبد المنعم الخفاجي ، والدكتور عبد العزيز . دار غريب للطباعة بالقاهرة ١٩٩٠ م

٣٤- مجلة كلية الآداب -

جامعة القاهرة - المجلد الرابع ، الجزء الثاني - ديسمبر ١٩٣٦ م -

المحتويات

المقدمة - صفحة ١ - ٧

الباب الأول - ازدهار البلاغة العربية - صفحة ٧ - ٥٢

الفصل الأول - نشأة عبد القاهر الجرجاني وثقافته

الفصل الثاني - كلمة عن علم البلاغة وأصحابه،

الفصل الثالث - عبد القاهر، والبلاغة العربية وقواعدها،

الباب الثاني ٥٢ - ٩٢

دور عبد القاهر الجرجاني في تطوير البلاغة العربية.

الفصل الأول - البلاغة بين اللفظ والمعنى.

الفصل الثاني - علم المعاني «النظم» لدى عبد القاهر الجرجاني.

الفصل الثالث - علم البيان لدى عبد القاهر الجرجاني.

الباب الثالث ٩٢ - ١٢٤

أسرار البلاغة بين المعاصرين ومن بعدهم.

الفصل الأول - الموازنة بين أسرار البلاغة، والأعمال البلاغية المعاصرة الأخرى.

الفصل الثاني - البلاغة بعد عبد القاهر الجرجاني

الفصل الثالث - تأثير أسرار البلاغة على النقد الجديد وآرائهم عنه،

خاتمة القول ١٢٤ - ١٣١

CONTRIBUTION OF ABD-AL-QAHIR-AL-JORJANI IN ARABIC LITRARY CRITICISM AND RHETORIC WITH SPECIAL REFERENCE TO ASRAR-AL-BALAGHA

DISSERTATION

Submitted to the Jawaharlal Nehru University in partial fulfillment of the requirements for the award of the degree of Master of Philosophy

By

Mohd. Aleem

Under The Supervision of

Prof. F.U. Farooqui

Centre of Arabic and African Studies

School of Languages, Literature and Culture Studies

Jawaharlal Nehru University.

New Delhi-110067

2002